منتهى عبدالله

غطاء سندس دافئ

غطاء سندس دافئ

*****

بركة ماء، مياهها راكدة، لا شيء أمامي سواها، أنظر فيها إلى انعكاسي فأرى الأمل والاطمئنان، أمام تلك البركة وقفت طويلاً ولم أشعر سوى بالحُب.

*****

١

*****

عندما كنتُ صغيراً، كان أبي يصحبني معه لاجتماعات عمله المفتوحة، بهدف تأسيسي لهذا العالم. أبي، أحد أكبر تجار الدولة، بل الوحيد، احتكر لنفسه استيراد وسائل النقل كافة. بدأ أبي شركته عندما كان في السابعة عشر من عمره، كان يعمل كسائق أُجرة بأجرٍ زهيد. وسنة بعد سنة -كقصص النجاح التي يرددها الكثيرون- امتلك أول شركة له لاستيراد السيارات، وذلك قبل تخرجه من الجامعة. وبعد عمرٍ مديد أصبح الوحيد القادر على إمداد مناطق الدولة كافة بوسائل النقل. اصطحبني أبي عندما بلغت السادسة من عمري لأول اجتماعٍ حضرته -بالطبع وأي اجتماعات سيحضرها من بالخامسة؟ - كان لعقد أحد صفقاته -التي لم تفشل إحداها مطلقاً- ومنذ ذلك اليوم أصبح وجودي في كل اجتماع أمر مهم بالنسبة لأبي، حتى اعتاد زبائنه على وجودي، وأصبحوا

حينما أتخلف عن الحضور لعذر ما يتصلون للاطمئنان علي.
دون قصد نقل لي أبي هوسه في حب المال وبدأت باللحاق بالفرص الربحية -قصيرة الطريق- منذ ذلك الحين.

*****

خرجت أنا وصديقاتِ الحي، ممن جلبنهن أمهاتهن لحفلة ترقية أبي، للسباق لأول مرة. لم أكن من مُحبي الركض أبداً ولا الرياضات الهوائية، لعلمي بأصابتي بمرض الربو منذ ولادتي. دفعنني صديقاتي الجديدات للخروج في ذلك اليوم إلى الحديقة المقابلة لمنزلنا للسباق، وذلك بعدما انتهينا من الاحتفال. ذهبنا بالفعل ووقفنا صفًا ننتظر إشارة البداية، وهي وصول أمهاتنا للرقم "ثلاثة". انطلقنا للركض بسرعة، تحت ظل الغيوم وعكس تيار الهواء، ذهابًا وعودة من نقطة البداية إلى النهاية. عندما وصلنا، ولا أذكر من فازت منا، ولم نحفل بذلك في الحقيقة فقد استمتعنا بالركض والضحك ونسينا أمر الفوز، ولكن عند وصولنا إلى النهاية نظرتُ إليهن فإذا بكل واحدة منهن تضع يدها على صدرها، وضعت يدي مثلهن على نفس المكان، لاحظت استمرارهن في القيام بذلك، حتى جاءت إحدى الأمهات للطفلة التي بجانبي ووضعت هي الأُخرى يدها على صدر ابنتها وقالت خذي نفساً

عميقاً سيهدأ قلبك بذلك، هيا كرريه معي. وقفت متعجبة ولم أفهم شيئاً مما تراه عيناي، ما الذي يحاولون تهدئته! اصطدمت بي في هذه الأثناء من الخلف إحدى الصديقات والتي جاءت لتقف معنا بعد أن شربت بعض العصير، التفتُّ إليها فاحتضنتني، فسمعتُ شيئا غريباً يطبل بإيقاع سريع داخل صدرها، فأمسكتها ونظرت في عينيها وقُلت لها هل أنت بخير؟ وناديت على أمها فجاءت مسرعة فقلت لها إن بابنتك خطبٌ ما، وأخذت بيدها ووضعتها حيثُ سمعتُ تلك الطبلة، فابتسمت وقالت: لا عليك إنه لأمرٌ طبيعيٌ حدوثه بعد الركض لكل تلك المسافة، فقط تنفسي بعمق بشكلٍ بطيئ وقومي بالجلوس وسيهدأ. جلست بجانبها ارتعدُ خوفاً عليها، ووضعت يدي على صدرها بعد أن طلبت مني والدتها القيام بذلك، مطمئنتني أن قلبها عاد لنبضه الطبيعي، فإذا بيدي تحس بنفس تلك الطبلة ولكن بإيقاعٍ أبطأ. نمتُ خائفة كثيراً في ليلة ذلك اليوم، وقد راودني كابوسين عن تلك الطبلة في صدر صديقتي. ولكنني وبعد بضعة أيام، سلوت عن الأمر ولم أذكره لأحد. حتى أنني وبعد مرور زمنٍ على حدوثه أخذ ينتابني الشك، هل كان حقيقة أم من نسج خيالي.

*****

أحملُ سراً يثقل كاهلي، ولم أستطع البوح لأحد عنه. إنني وطوال حياتي في حالة انتظار وخوف وقلق، متسائلة: هل سينبض قلبي؟

لم أشعر بطبلة تدق في صدري أبداً، أو لعلني شعرت بها ونسيت، اعتقد أن قلبي توقف نبضه في تلك اللحظة نفسها، عندما ابتدأ. لأنني لم أعلم شيئا عنه بعدها، ولم يعلقا أمي وأبي عن الموضوع. ابتدأ فقط ليطمئن طبيب الولادة وأُمي، أنني على قيد الحياة، وها أنا ابتدؤها. في تلك اللحظة بعينها، جاءت نبضه، فانقباضه، فتذبذب، ثم استقرار. استقر على حالٍ واحد؛ وهو السكون. لم يعلم أحدٌ بذلك ولا حتى نفسي قبل أن أكبر وأكتشف حقيقة أن لكل إنسانٍ قلب نابض، في ذلك اليوم أخذت يدي تهرول ذهاباً إياباً على قفصي الصدري، تبحث عما يتحدثون عنه، دون جدوى. فأخذت بالبحث والاطلاع على صدق حقيقة هذا الخبر، أفعلاً لكل إنسان قلبٌ نابض! فأين مالي! بحثت واطلعت لأكتشف ما الذي يحرك القلب حقاً وكيف نشعر به؟ قلت ربما لا يمكن اكتشاف نبضه بالأيدي، بل يُكتشف بالسماع، سأبحث عما يجعله مسموعاً في أُذني. فوقفت عند مقالة تتحدث عما يمكن أن يرفع تدفق مستوى الدم في الإنسان ويسرع نبضه، شيء يسمى بالأدرينالين، حتى نكاد نسمعه بأُذنينا، كالمغامرات الخطرة ووضع النفس على المحك والمجازفة. فأخذتُ يومها أبحث عن أقرب فرصة تمكنني من تجربة شيء من ذلك، فأنا لا أعرف ما

الذي حقاً قد يُحرك شيء لا زلت أشك بوجوده. وذات يوم أُتيحت لي الفرصة للصعود إلى سلمٍ يؤدي إلى سقف جدارٍ في قمة البيت، فاتسع بؤبؤ عيناي حماسة وشوقاً، قلت هذه هي فرصتي، سأستمع إليه اليوم، سأطمئن بوجوده!

لم أتردد للحظة رغم صغر سني، صعدت على درجات هذا السُلم واحدة تلو الأُخرى وأنا أُحدقُ في العدم؛ طمعاً في أن أجدني. وصلت لآخرة، صعدت بتمهل قدماً تلو الأُخرى حتى وقفت عليهما في سطح سقف البيت. أبصرتُ السماء فالشمس فالغيوم فانطلاقة العصافير حولي، استنشقت الهواء الذي بدا بارداً عما سبق، وأخذت انتظر.. وانتظر.. ثم تذكرت تكملت المقالة والتي قيل فيها أن "تسارع نبضات القلب يكون من الخوف من السقوط وهذا يحدث عند النظر للأسفل". فابتسمت -ابتسامة من أثبت وجهة نظره بعد جدالٍ طويل- فتقدمت خطوتين لأصل إلى نقطة تمكنني من النظر للأسفل ووصلت واستنشقت الهواء مرةً أُخرى واتسعت ابتسامتي واسقطت عيناي فوراً للأسفل. بدا الأمر كمن كان أعمى وارتد إليه بصره، فلم تبصر عيناي عند سقوطها شيئاً في بادئ الأمر، ولكنها بعد ذلك أبصرت، دُهِشت وحدّقت.. واستمر الأمرُ لحوالي دقيقتين، حتى فُتنتُ بمنظر الأشياء من أعلاها ونسيت غايتي، فابتسمت لاكتشافي الجديد، الناس من الأعلى يصغرون. عدت خطوة إلى الوراء ونزلتُ السلم. ارتفعت عيناي في

هذه الأثناء فتذكرت ذات النظرة التي اعتلتني عندما صعدت، تلك التي كانت متشوقة لأمرٍ ما، فاتسع بؤبؤي دهشةً مرة أُخرى، واكتشفت الأمر الآخر لنفس اليوم، أن قلبي لم ينبض. أُصبتُ بخيبة عندها، والذي زاد الأمر سوءاً هو ردة فعل أُمي عندما اخبرتها بما قمتُ به، فاعتلاها الخوف والهلع واخذت توبخني وتتحدث عن فقداني وشدت بي إلى صدرها فاستمعت إلى قلبها في هذه الأثناء، أصدر صوتاً عالياً لأنها خائفة! لأن فكرة فقداني أرعبتها! فعلمت شيئا سيحرك قلبي منها، دون أن أُفصح لها عن سر غياب نبضي. زرع ذلك اليوم فكرة أنني لن استمع إلى قلبي إلا إذا خفت على أحدهم، ولكن من؟ الجميعُ ولله الحمد بخير وعافية ولا أجد ما أخافُ عليه.

*****

ما أقوم به لتأمين قوت يومي في العزلة هو الكتابة. أكتب كثيراً طيلة الوقت، حتى أنني بدأت لا أميز الأيام عن بعضها البعض ولا الأوقات لقلة نظري إلى النافذة المطلة على الخارج. ما أكتبُه يسليني قبل أن يطعمني ويسقيني، بعضه من خيالي وقليل منه ينسب للعالم الحقيقي. إن في العزلة حياة؛ إذا ما اختير النشاط الملائمُ لها.

*****

لأُمي طفلين يصغرونني، لا أعلم ما جنسهم. فبعد محاولتي "الانتحارية" كما أسمتها أُمي، قمت بأمورٍ أشد خطورة لحاجة في نفسي غابت عنها. ذهبنا للمدينة الترفيهية في ربيع نفس السنة وكنت أبلغُ من العمر حينها تسع سنوات، ارتديت حذاءً بكعب مخفي وبنطالٌ واسع طويل لتغطيته، لكي يزيد من طولي قليلاً، فأنا أعلم أن الألعاب الخطرة والقادرة على إيصالي لغايتي غير مسموحةٍ لي، فحاولت زيادة طولي حتى أبلغها. وبالفعل تمكنت من خداعهم في حين غفلةٍ من أمي وصعدت على ظهر أشد الألعاب خطورةً في مدينتنا، تلك التي ترتفع ارتفاعاً شاهقاً ثم تُلقي بالراكبين إلى أدنى نقطة ممكنة. استهواني صراخ الناس ورعبهم وشدة خوفهم، فقلت لنفسي إن لم أجد من أخاف عليه فلأخاف على نفسي ربما يستيقظ نائمي من غيبوبته. ابتعت التذكرة ومررت بطابور الصعود، والذي يتحققون فيه من عمر الشخص -بطوله غالباً- فاقتنعوا بعمري الذي استشفوه من طول قامتي، وصعدت. ارتفعت اللعبة شيئا فشيئا ولن أكذب أن قلت إنني لم أتوتر، فقد توترت وانتابني الخوف عندما صعدنا لأعلى نقطة، ولكن هدفي واضح ويستحق المجازفة لأجله ووضع نفسي على المحك -حتى أرى حقيقتها- وبعد الصعود بنصف دقيقة تحررت كراسينا من قاعدة اللعبة وأُلقيَ

بنا إلى الأسفل، سمعت صرخات الجميع وكذلك صراخي حتى جف حلقي، وعندما استقرينا في الأسفل لم أغفل عن هدفي هذه المرة سارعت يداي للتشبث بقلبي، ولم أتفاجأ فهذا ما توقعت حدوثه في هذه الظروف وبعد تلك السقطة المريعة، لم ينبض.

*****

-ما يحدث لي سيءٌ جداً.
-حياتُك مثالية وسعيدة للغاية.

*****

شعرت بالإزدراء على حالي وشعرت كذلك بالشفقة والرأفة علي، ما الذي أقوم به؟ أفعلاً كنت مستعدة لأهوي بنفسي لقاع الموت فقط لأتمكن من الحياة؟ أي منطقٍ هذا الذي لدي! علمت أمي بالأمر وذلك بعد أن نزلت من اللعبة وأنا قد أسقطت حذائي من أعلاها حينما أندفعنا للأسفل، هُنا حاصروني المنظمون واتصلوا بأُمي وأخبروها، وبختني هذه المرة بعنف أشد من سابقتها. اعتذرت لها وأفصحت -كذباً- بأمر حُبي للمغامرة والألعاب الخطرة، ولم تتقبل هذا الأمر بل وحاولت جاهدة لأيام اقناعي بالعدول عنه. بعد محاولتي باسبوعين ذهبنا نحن وخالاتي إلى منتجع مائي لقضاء بضعة أيام هناك. في اليوم الأول لعبنا

بالألعاب المائية وتسابقنا وبنينا قصور رملية وقضينا أوقاتاً ممتعة. في صباح اليوم الثاني استيقظنا على صراخ أبنة خالتي الكبرى البالغة من العمر عشر سنوات والتي لم تقض وقتاً ممتعاً معنا بالأمس لأنها تخاف المياه. هرعنا لنرى ما الأمر وإذا بنا نجد ابن خالي الأصغر ذو الثلاث سنوات قد قفز إلى المسبح ولم تستطع هي انقاذه، فقفز خالي مسرعاً إلى ابنه وعاد حامله بخوف شديد والعرق يقطر من جبينه. وضعه في الأرض وأخذ يضغط على بطنه عدة مرات، حتى خرج ماء من فمه ولكن لم يستيقظ، قالت له زوجته تحقق من نبضه فتحسسه بوضع اصبعين على عنقه ورفع رأسه للأعلى متحرياً ثم قال نعم نعم أشعر بنبض، في هذه اللحظة استيقظ ابنه يسعل بشدة وخرج منه ما تبقى من المياه التي ابتلعها. أخذوه بين ذراعيهم أبيه وأمه وأدخلوه للداخل. لم نستطع اللهو في ذلك اليوم ولم ينزل أحدنا إلى المسبح بعدما حصل، فقد قضينا طويلة ظهيرتنا صامتين متأثرين بشدة بالذي حصل. غربت الشمس واشتد ظلامُ الليل وبدأت تهدأ أنفسنا وتسلو عما حدث. ذهبنا لنسبح ولكن دون إحداث جلبة، فقط نتسكع في المياه بشكلٍ هادئ. سمعنا نداء أمهاتنا يدعوننا لتناول العشاء والخلود إلى النوم معلنين نهاية اللعب لهذا اليوم. تعشينا سوية على حساء دجاج أعدته جدتي بوصفتها الخاصة وبضع حباتٍ من الكوسة المشوية. ذهبنا بعدما انتهينا من الأطباق إلى غرفنا للخلود إلى النوم.

سهرن خالاتي سوية في تلك الليلة معلنين لنا بعد استيقاظنا صباحاً موعد رحيلنا. عدنا إلى البيت ولم نتحدث كثيراً عما حدث. مر يومان رجع فيهما عقلي لهوسه الذي يقوده إلى الهاوية. خرجت من دائرة أفكاري إلى حمام ماء دافي ليفرد عضلاتي قليلاً بعد اللعب الشديد. ملأت مغطس الاستحمام واستلقيت في داخله كعادتي وأخذت ساقاي تتحركان يميناً ويساراً بخفة، لضيق المساحة، كي أحدث موجة لطالما استمتعت بها.

******

أشعر بالبرد الشديد، ثمة حضن من جليد يحتضنني من الخلف، ما الخلاص...
هُناك دفء يقترب، رحمةٌ نزلت من السماء، غطاء سندس دافئ.

******

غفوت في المغطس الدافئ بعد لحظات ورأسي مستقر في الأعلى بعيداً عن المياه. راودني حلماً بابن خالي وما حصل له، فزعت في داخل حلمي - كمن استيقظ من حلمه وهو مازال يحلم- فقلت نعم هذه هي، الغرق يُحيي النبض! عندما غرق ابن خالي وأخرجوه لم يكن لديه نبض وبعدها أصبح لديه! ومن

يدري ربما يملك ابن خالي سراً كسري ولم يعلم به أحد حتى نفسه وهو أن قلبه لا ينبض، وعاد له النبض بعدما أنقذوه من الغرق. استمر حلمي وتحليلاتي للأمر وأنا مازلت مستلقية في المغطس. أُمي ومن اعتادت على الإشراف على استحمامي قبل أن أُتم الثامنة من عمري، وضعت لي مدة لا أتجاوزها عند الاستحمام بعدما أوكلت أمره لي وهي ساعة واحدة فقط، لأنتهي من لعبي واغتسالي. استيقظت من النوم على صوت طرقها لباب الحمام للتحقق مني فقلت لها بقي لي القليل فذهبت. ومع إيماني بعودتها عزمت على تجربة ما استنتجته في حلمي، إغراق نفسي لأُعيد نبضي الغائب. أغمضت عيني ونزلت في المغطس وأخذت استنشق المياه، لم أستطع فنفسي تدفعني لأن أخرج، غريزة البقاء والنجاة تتمكن مني في كل مرة، حتى قمت بإعادة فتح صنبور المياه ووضع رأسي تحته، فإذا حاولت الخروج يكون موجوداً من جهته يغرقني بمزيد من المياه. وفعلاً احسست بتغلغل المياه في جوفي وبالغصة وضيق التنفس حتى فقدت الوعي. جاءت أمي لتتحقق مني مجدداً فإذا بها تطرق الباب مراراً وتكراراً دون رد. وقفت تنتظر مني رداً حتى ابتلت قدماها بالمياه التي كانت قد غمرت المغطس وتسللت إلى الخارج، فتحت الباب بسرعة والذي لم يكن مقفلاً -هذا من قواعدها للاستحمام أيضاً- وهرعت لإخراجي وهي تصرخ. وضعتني على الأرض وأخذت تضغط بكل قوتها

على صدري لتخرج المياه، خرجت المياه واستيقظت فور حدوث ذلك. نظرت إليها فإذا بدموعها تتسلل من عينيها بتدفق أسرع من صنبور المياه السابق، لم تقل شيئاً فقط اكتفت باحتضاني وحملي وتجفيفي ووضعي في السرير وخرجت. لم أرى أُمي بعد ذلك اليوم، تخلت عني أنا وأبي وابتدأت أسرة جديدة. كان من أسباب تخليها عنا هو وصفنا بالتهور والجنون واللامبالاة، والتي لم تلمني عليها كثيراً بكوني طفلة فقد وقعت الملامة على أبي لكونه ورثني تلك الطباع.

*****

أُحب سماعُ جزئيتك على سماع جرئية عقلي؛ أكمل.

*****

٢

أبي، هل أنا صماء؟
ما هذا السؤال عزيزتي لم تقولين ذلك!
فقط أتساءل.
لا أنت لست كذلك.
رحلت أمي منذ سنتين، استمرت مشاكل طلاقها مع أبي طوال تلك الفترة، بقيت أنا وأبي في البيت لوحدنا لا شيء سوانا ولا يزورنا أحد إلا نادراً، أنا وهو فقط يداري بعضنا الآخر. بعد محاولتي الفاشلة الآخيرة والتي تسببت بهدم بيتنا وطلاق أُمي وأبي، أعلنت توبتي من المجازفة، ولم أُرد البحث عن ذلك النبض المشؤوم بعد. ركزت على رعاية أبي والاهتمام بدراستي، ملقية أمر الحياة خلف ظهري. حتى سمعت يوماً من معلمتي، وكان ذلك بعد رحيل أمي بستة أشهر، قصة عن رجل أعمى، سُئل ما الذي يراه وهو أعمى؟ فأجاب أنا لا أعرف ما الرؤيا! لا أدري من ذا الذي خطر بباله سؤال كهذا، سؤال أعمى لا يبصر عما يُبصر! ولم أكترث بأمره كثيراً لأن وبالرغم من

سخافة السؤال فقد فتح لي احتمالاً جديداً، هل أنا لا أسمع نبضي لأنني صماء؟ إذا كان الأعمى يعيش طبيعياً وهو لا يدري ما الإبصار فربما أنا أيضاً أعيش حياة طبيعية وأنا صماء ولا أعلم معنى السماع! قرأت عدة كتب على مدار السنتين عن فقدان الحواس وأثرها وما الذي يشعر به من يفقد إحدى حواسه، وجدت أقوال تشبه ما اشتبه عقلي بأنني فعلاً لم أسمعه لأنني لا أسمع ولا أدري ما السمع لكي أعلم ماهيته! ارتاح قلبي كثيراً لهذا الأمر وبدأت أتأقلم مع حياتي على هذا الشكل وبهذا الاعتقاد: أنا صماء.
حتى زل لساني لأبي والذي أقضي معه معظم وقتي وسألته هل أنا صماء فأجابني بالنفي وتساءل لما قلت ذلك، فقلت له أشعر بناءً على أمورٍ كثيرة عشتها بأنني كذلك، فابتسم لي وقال لا أُأكد لك أنت تسمعين، صفي لي صوتي الآن؟ فلم أُجب بظني أنه سؤال مخادع، فعقلي قد اقتنع أنه من لا يسمع يعيش حياته لا يدري عن ذلك.
فانتظر جوابي ولم يحصل عليه وقال لي ما الأمر فقلت أنا أستطيع وصف صوتك الآن لأنني اعتدت على سماعه أو تخيله وربما كنت طوال تلك السنين أقرأ شفتاك واتخيل صوتاً لك بحسب شكلك وربما يصدف توقعي فلا تقتنع بحقيقة أني صماء. فابتسم مرة أُخرى وقال لي انظري إلي، أنا متأكد من ذلك لأمر سأُخبرك به لأول مرة، أنت فتاة ذكية جداً، في يوم ولادتك وعندما حملتك بين ذراعي، ناديتُ باسمك

"أمل" فنظرتي إلى وابتسمت لي، ولن أنسى هذا الموقف ما حييت. فتعجبت وقلت حقاً! أميزت صوتك وأنا رضيعة! فقال نعم فاطمئني أنت لست بصماء. ولم يدر أن ما كان يطمئنني هو ذلك الاحتمال الذي نفاه لي ونفى أي اطمئنان بقي لي حينها.
لم يهدأ روع قلبي بعد ذلك اليوم، فما قاله أبي بحقيقة كوني أسمع لم يناسب ما أعيشه أبداً، إذا كنت أسمع فأين نبضي، لم أعجز عن سماعه! فعادت إلى يومها أفكاري السابقة، وما قرأته في ذلك المقال وما حاولت تحقيقه من قبل كالمخاطرة والمجازفة والخوف على أحدهم، ولم أجده.

*****

إنه هو، إنني أقترب من الوقوع في البركة، لماذا يدفع بي إليها!

*****

حدثتني صديقتي المقربة يوماً وكُنا في فترة المراهقة أنها إذا شعرت بالضيق ولم تستطع أن تبك تبدأ بتخيل فقدان ذويها لكي تبكي وتخرج ما بداخلها من دموع. لقيت الفكرة رواجاً في عقلي لكونه خوف يمكنه إيقاظي، وشرعت في تطبيقها ما أن أغلقت باب غرفتي ليلاً للنوم. أخذت بتخيل أول فكرة عن الفقدان

فلم يستطع عقلي إدراكها تماماً، فوجدت أنه يجب علي أن أخلق سيناريواً كاملاً للأمر، فأبدأ بمن سأفقد وما الذي سيحدث له لكي أفقده، فتخيلت فقدان والدتي بكونها أقرب الناس لي منذ أن كنت طفلة، فلم أشعر بشيء لأنني قد فقدتها بالفعل عندما جن جنونها من أفعالي. فاخترت تخيل موت أبي - رفض عقلي الأمر كلياً حتى دفعني للنوم. - جربت ذلك الأمر لليوم التالي في نفس الوقت، فقلت لنفسي حسناً قد فقدت أمي بعد الطلاق، ولكنني أعلم بأنها بخير وعافية ماذا لو أصابها حادث هي أو أحد أخوتي ورأيتهم بحالٍ سيء، استوقفني أبي هنا: عزيزتي لن تري ذلك الأمر فهم تخلو عنا للأبد. غفوت على قول ماذا لو، ولم تنزل مني أي دمعة فأبي لم يكذب عليّ أبداً. انطوت السنين على ذلك الأمر وأخذت أسلو تدريجياً عن قلبي وفكرة سماعه، حتى وصلت للمرحلة الجامعية وقبل أن أبدأها كان هناك مرحلة اختيار التخصص الدراسي، وكان لدي العديد من الأحلام للحاق بها، كأن أكون محامية كوالدي الذي يعمل في سلك المحاماة ويدرس الطلاب صباحاً في الجامعة التي أراد لي الإلتحاق بها. ولكن قبل أن أخطو خطوة إلى حلمي استمعت إلى كلمة عادت بي سنين إلى الوراء، وهي المجازفة، قالتها إحدى أعضاء هيئة التدريس المشرفة على إيضاح التخصصات الجامعية لنا لتسهل اختيارنا. جاءت بها في سياق أن أحدهم قد يجازف ويختار المضي في تخصص لا يعلم عنه أي

شيء فيتعرض للإخفاق فيه والرسوب. انتهت محاضرتها وذهب الطلاب إلى بيوتهم وكذلك أنا ولكن ما قالته عن المجازفة لم يتنح عن ذهني.

*****

الجامعة هي مكان تكملي فيه تعليمك ابنتي وتتعرفي على بعض الصديقات.

*****

أنا ولدت لأكون محامية كوالدي، قرأت من كتبه عن المحاماة كثيراً، حتى أصبح لدي أساس راسخ للتخصص قبل دراسته. ولكن وبعد أن سمعت كلمة المشرفة رحت أبحث عن التخصصات الجامعية في كل الجامعات وأفرز ما أراه سهلاً منها وما لا أعرف عنه شيئاً، حتى وجدت ذلك التخصص الذي يُدعى باسم لم أعرفه قط حتى بعد القراءة عنه، فاجتاحني الشوق إلى أمرٍ سعيت له منذ نعومة أظافري؛ إيجاد نبضي. فقدمت بالطلب لذلك القسم وتحدد موعد اختبار القبول وذهبت لإجراءه. لم يكن سهلاً ولا عميقاً، فقط بعض الأسئلة لقياس القدرات العامة المناسبة للالتحاق بالتخصص. بعد اسبوع من ذلك تلقيت مكالمة قبولي من الجامعة، ابتسمتُ يومها كابتسامتي يوم تسلقت ذاك السلم. ابتدأ العام الدراسي

وحضرت أُولى محاضرات التأسيس لذلك القسم وأنا أتحرى على لهيب من الشوق أن أُجازف.. أُريد تجربة المجازفة ووضع مستقبلي على المحك، فقط للتأكد من حاضري وماضيي! جاءت نتائج الترم الأول من اختبارات ذلك التخصص الغامض، وها أنا ذا، اجتزته بتقديرٍ جيد. أصابني الإحباط يومها والحزن حتى أخذن صديقاتي يواسينني ويقلن لي "لا عليك ستتمكنين من النجاح في الترم المقبل"، ظننّ من شدة ضيقي وازدراءي أنني لم اجتز ولكن ما لم اجتزه فعلاً هو العيش دون التأكد من ذلك! بعد مجازفتي الآمنة، اخترت أن ألحق حلمي الأول وقدمت طلب لتغيير تخصصي إلى القانون حيث يدرس والدي هناك، وحيث ما حلمنا سوية طيلة عمرينا. تفوقت في الترم الأول وبجدارة، ولا عجب في ذلك كوني أدرس القانون من أبي منذ صغري وكون أبي أيضاً مدرسي فعقلي لا يستشعر شيئا ولا يدركه إلا إذا جاء بصوت أبي.

تقدمت بالعمر سنتان، وبدأت تراودني أفكار لم أُعطها كامل حقوقها مسبقا في مرحلة المراهقة، وهي عن الحب. في بادئ الأمر لم تبدُ فكرة الحب لدي كأمر مغري، بل بدت كشيء اعتيادي يحدث في حياة أي منا في أي وقت، فلم العجلة. وأنا مغمورة به حقاً منذ ولدت فأنا الطفلة الأولى لدى والدي والوحيدة حتى عمر العاشرة. ولكن ما دفعني لهذه الفكرة هو ذلك اليوم بعد مكوثي بالقرب من زميلتي التي تتحدث مع

خطيبها وهي متكئة على كتفي، في لحظة ما وفي انشغالي الكلي بأمر مسلسلي الذي يتحدث عن المحاماة، والذي كنت أُتابعه حينها وأنا أضع سماعة في أُذُني، قفزت من مكاني! دفعتها وهاتفي بعيداً من شدة الهلع أخذت عيناي بالبحث يمنة ويسرة، ويداي في الهواء تارة وحول جسمي تارة أُخرى. حتى دفعتني للوراء متسائلة ما خطبي، أجبت بأن شيئاً قد مشى علي! فأخذت بالبحث هي الأُخرى وقمنا لمكان آخر للاطمئنان. رجعت للبيت يومها وأنا أحمل ذنب كذبي، لم أشعر بشيء يمشي ولكنني شعرت بشيء ينبض! لم أستطع إيقاف عمليات تحري يداي يومها حتى خلدت إلى النوم وأنا لم أجد شيئا. عندما استيقظت استمر بحثي لليوم الثاني وكذلك الثالث والرابع.. حتى مر اسبوع على الأمر، ولكنني لم أستطع تجاوز ذلك. فأخذت أعصر عقلي محاولة تذكر مكان النبض بالتحديد، حتى جاءتني فكرة أفضل وهي البحث عن مكان العروق النابضة في جسم الإنسان. بدأت بالبحث في محرك البحث قوقل ولم يُقصر في إمدادي بما أريد وما لا أريد. وبعد معرفتي بدقة لتلك الأماكن أخذت أتفحصها مرتين يومياً، قبل النوم وبعده. حتى جاء ذلك اليوم في الجامعة وعدنا أنا ونفس الصديقة لنفس الجلسة: هي خطيبها كتفي مسلسلي. أخذت وقتها باصطناع "ديجا فو" لمحاولة تذكر ذلك الإحساس. ولكن محاولاتي ذهبت سدى. وبعد ربع ساعة من يأسي شعرت بنبض في نفس

المكان وبدلاً من هلعي كالمرة السابقة وإضاعته جمدت في مكاني وأطفأتُ المسلسل. بدأت أُذني بالإنصات، نبضة نبضة. وأنا أشعر بدهشة عارمة وفرح يشعلني وأشعر بأن عقلي توقف من شدة هول الأمر. حتى أغلقت صديقتي الخط وقامت عن كتفي، توقف النبض! لماذا! ماذا فعلت! ما الخطب! التفتُّ إلى صديقتي بعينين مغمورتين وهي تنظر إلي متسائلة ما بك! نظرت هي إلى هاتفي ووجدت أن مسلسلي توقف فابتسمت وقالت لي أمات البطل! ضحكت وأخذتني في ذراعيها تواسيني، عاد النبض! سقطت دموعي طمأنينةً، انتبه عقلي، ابعدتها يداي عني بخفة، توقف النبض، قلت نعم إنه البطل، حضنتها مرة أخرى، عاد النبض!!
سقطت مغمياً علي إحباطاً لتلاشي فرحتي الكبرى وما انتظرت حدوثه طوال عمري، حسبتني أمازحها وأبالغ في ردة فعلي على البطل، فاكتفت بالمسح على رأسي حتى استيقظت في خدرها وشعري بتسريحةٍ مختلفة.

عمت كلمة الحب بعد ذلك الموقف أرجاء عقلي، ولونت جدران فؤادي، كأملي الأخير لألتقي بذاك المفقود! فما شعرتُ به من قلب صديقتي أمرٌ لا يمكنني تجاوزه، فقلبها لم ينبض وحسب، بل نبض حتى وصل صدى نبضه في داخلي فخُيّل الي أنه مني. أصبحت تتردد كلمة الحب في ذهني وعلى

لسان أبي ومسامع من حولي، فقد تجلت أمامي بعظمة هائلة، كأمرٍ حاسمٍ، لا جدال فيه بإحداث نبضي. سهرتُ الليالي وحفظت ملامح سقفي من شدة التفكير. ذهبتُ إلى المكتبة كعادتي أبحث وأتفقد -عن أمر آخر غير غائبي- وهو الكتب الجديدة، فما كان يشغل عقلي عن التفكير في حقيقة حياتي من عدمها طوال تلك السنين هو الكتب. ذهبت لقسمِ الشعر والرواية، حيث اعتاد أبي على تفقده بعد قسم القانون، وأخذت أتصفح الكتب بحسب الاقتباس على الغلاف الخلفي. وجدت في أحدها كلمة "ينبض قلبي حباً" فأخذته فوراً وذهبت إلى أقرب طاولة لتصفحه. أنا أنوي قراءته كاملاً، ولكن لم أستطع الانتظار حتى الوصول للبيت لاكتشاف أمرٍ بات يأكل ويشرب معي. تخطيت مقدمة الكاتب المطولة وبدأت بأول صفحات الكتاب الفعلية. قرأت سطراً بعد سطر وصفحة بعد صفحة قراءة متمهلة ثم تحولت للمسح بعيناي سريعاً، حتى بدأت أشعر بالضجر، فلم يشرح الكاتب حتى الآن في أي منها ما انتظر سماعه، وهو طريقة تأثير الحب على القلب لجعله ينبض. أنا، وبعد تعلقي بأمل الحب في إحياء نبضي، عزمت على الحب ولكنني لم أرد أن أتقدم خطوة في ذلك الأمر وأشرك غيري معي سدى، أردت التحقق أولاً من حقيقة حدوث ذلك، تحريك الحب للنبض، وهذا ما دفعني للاطلاع على ذلك الكتاب. في ربع صفحاته والبالغة أكثر من أربعة مائة، تملكني الضجر فعلياً وأنزلت رأسي على

الطاولة من شدة ثقل الإحباط. في تلك الأثناء سمعتُ صوتاً خلفي، ذو جدية وعمق، رفعت رأسي لأرى فإذا بعينان كغيم الندى تحدقان بي، بدفء وريبة، وإذا بذلك الصوت الخاطف يقول: أنتِ بخير؟ أأحضر المساعدة؟ فأجبت بهز رأسي نفياً فإذا به يبتسم بعد تفحص عنوان الصفحة التي وقفت عندها وهو "فهم الشريك"، ويرمقني بنظرة متشككة: أتجدين صعوبة في ذلك؟ فأبتسمت إحباطاً: ليس ذلك الأمر، بل أجد صعوبة في ربط اقتباس الغلاف الخلفي بكل ما أقرؤه الآن. فيتقدم للجلوس في الكرسي أمامي ويبتسم بشكل أوسع -بشكل قادر على احتضان عيناي- ويقول: كثيرٌ من الكتاب يقومون بذلك من باب التسويق لكتبهم، فيختارون عنواناً شيقاً ويضعون اقتباساً عميقاً فقط لجعل القارئ -المتعجل- يقتني كتبهم بسهولة. فأُنزلت عيناي بابتسامة تحمل في طياتها خجل واتفاق: أجل من الواضح أنهم يقومون بذلك، وقد تمكن مني هذه المرة. فيضحك ضحكة لا مبرر لها، يبدو سعيداً بشكل مبالغ منذ أن رأيته، لا أعرف ما خطبه ولا أعلم مدى جديته، أهو هنا ليسخر مني أم ماذا. وفي منتصف تساؤلاتي وشرودي يقاطعني بذكر اسمه ويلحقه بـ"مؤلف الكتاب الذي بين يديك"، أخبريني ما الذي تريدين إيجاده لأُساعدك في ذلك، وإذا لم يكن هناك ما أردت سأوفر عليك الوقت والإحباط، هنا فهمت سبب ضحكه وابتساماته المتكررة، إنني أتذمر من الكتاب لكاتبه! فاتسعت

عيناي اندهاشاً وحياءًا، وقلت مسرعة أنا متأسفة لم أقصد الإساءة لذاتك ولا لكتابك، أنا فقط.. قاطعني قائلاً لا شيء لتتأسفي عنه، صحيح ما اقتبسته في الغلاف كان بعيداً عن متناول من يتصفح الكتاب من أوله، فهو اقتباس من الفصل الأخير الذي أستعرض فيه ملخصاً لما خرجت به، ولكن قولي لي الآن ماذا أردت أن تجدي؟ أجبته بتردد ومراوغة: حسناً أردتُ القراءة عن الحُب والمحبين، تجاربهم وانتصاراتهم، فأسرع قائلاً: ولكن لم أذكر تجارب ولا انتصارات في الغلاف، ارتبكت أكثر واتبسمت ابتسامة عار وأجبت: حسناً أوقعت بي، أنا أبحث عن قصة القلب الذي ينبض حباً، فانفجر ضاحكاً: أحقاً! ضحكت أنا الأُخرى: نعم، أوليس القلب ينبض في كل الأحوال، فما الفرق إذا نبض حباً أو كرهاً؟ فتلاشت ابتسامته هنا وازداد عمق نظراته وعقد شفتيه: إمم هُنا أوقعت بي أنتِ. ابتسمت وأملتُ رأسي مشيرة له بالاكمال، فاسترسل قائلاً: القلب بالفعل ينبض في كل الأحوال كما قلت -ولا أتفق على ما قلته- ولكن إذا أحب القلب يختلف الإحساس بنبضه، فقبل الحب يكون مجرد فعل لعضلة لا إرادية -ههه لا إرادية!- ولكن بعد الحب يُصبح أمرٌ ملاحظ وبشدة، كجزء من جميع المشاعر المصاحبة للحب، يصبح لكل نبضة معنى خاص، وكل كلمة من المحبوب تعزف إيقاعاً مختلفاً بنبضه -سكت عقلي دهشة-، "عذراً لو سمحت هل أستطيع الحصول على توقيعك" جملة داهمت دهشة

عقلي وسكونه من أحد معجبي الكاتب الذي لا يعلم
عن جريمة اختطافه لقلبي ولا يعلم بسر غياب نبضه.

٣

*****

عزيزتي: أنا آسف على ما حدث، لم يكن الأمر بإرادتي، حاولت تجنب ذلك ولكنني لم أستطع. أنا خائفٌ الآن كثيراً، أكثر من أي وقتٍ مضى، لا أشعرُ سوى بالخوف في الحقيقة، وأنتِ أملي الوحيد.
أنا أُحبك كثيراً، لم أحمل كهذا الحب لأحد غيرك لا قبلك ولا بعدك، يا قلبي ومهجتي، وفرحي وبهجتي.
يا من تجلّى الكونُ في مُقلتك واجتمع السعدُ في بسمتك، أرجوكِ، أبقي هنا وإن رحلت، كوني بخير وقريبة دائماً، أعدك لن أتخلى عنك مهما حدث.
كوني بخير وإن لم ترافقيني.

*****

٤

استيقظت في منتصف الليل فجأة، راودني حلمٌ غريب، عن والدتي. حلمت بأنها تبكي كثيراً بسبب ابتعادها عنّا، ولكنني لم أستطع مواساتها فقد كانوا حولها طفلين وسيمين يحدانها لمنع من يقترب منها. رأيتُ نفسي في كلٍّ من الطفلين وكأنهم نسخٌ أُخرى مني، لم أقترب خوفاً منهما، بالرغم من صغر سنهما إلا أن تشابهنا أخافني بعض الشيء. حاولت نداؤها من بعيد فقط لأسأل لماذا لا تعود إلينا، وأطمئنها على حالنا من بعدها، فلم تسمعني. كان صوتي يذهب ويرجع صداه في داخلي، لم يتعد حنجرتي، كنت أصرخ محاولةً إخراجه حتى أمطرت السماءٌ دماً، سقط في فمي وأحسست بطعمه ولكنني لم أكرهه، فقد كان دافئاً دفئاً احتجته بشده، فأخذت أشرب الدم ليقيني صقيع هذا اليوم، فرأيتُ أُمي من بعيد تُراقبني مكتوفة اليدين، وقد اختفوا الطفلان المستنسخان، وكنتُ أتمنى منها سماعي؛ إنني بخير أُمي ولكنها أجهشت في البكاء حتى اختفت!

أيقظني، مرة أُخرى، فجراً صوت رنين هاتفي، إنه المؤلف حاتم يتصل، أجبت، فبادر بالترحيب، فرحبت، فعلّق مثنياً على نبرة صوتي الناعسة. حاتم، في هذا الوقت المبكر، أكل شيء على ما يُرام؟
نعم فقط أردت الاطمئنان عليك..
أنا بخير ماذا عنك،
أوجدت ضالتك في الكتاب أم لازلت تبحثين؟
أعتقد أنني مازلت بعيدة عنها، ولكنني سأصل إليها في القريب العاجل لا تقلق.
-حاتم، وللمرة السابعة في ثلاث أيام، يتصل ليسألني عن ضالتي وكتابه.. يا له من مؤلف! -
أتقوم بذلك مع كل القراء؟
في الحقيقة لا ولا يمكن القيام بذلك..
إذاً!
إذاً..
حسناً..
حسناً.
الوداع؟
بل إلى اللقاء.

أنا وكما قلت مسبقاً، لا أُريد الاستعجال في أمر قبل التحقق منه، أريد معرفة أمر نبض الحب من عدم قبل الإفصاح عن مشاعري، الجلية، أو دفعه للإفصاح عن مشاعره، الأجلى.

*****

-في مرحلة ما من حياتك سوف تقعين في الحب.
-وما الحب؟
-إنه شعورٌ حتمي، ستحملينه للشخص الذي يُريك نفسك بالصورة الفضلى، والعالم بالشكلِ الأنقى، ويقلصُ حدود الأمنيات في عينيك بحدِ خطي رمشه.
-ومتى ستكون هذه المرحلة.
-ليس لها وقتٌ محدد، ربما تأتيك في بداية المراهقة أو عند تقدمك قليلاً في العمر أو في أي وقت.
-ومن سأحب.
-من أعلم أنه ومهما فعل، لن يستحقك.

*****

بعد يومين انتهيت من الكتاب وقصدت المكتبة لأشتري غيره، فلم يذكر في مقطع "ينبض قلبي حباً" شيء عن كيفية ذلك، بل تحدث حاتم عن الأمر كشيء مسلم به، لا حاجة لشرحه. ذهبت إلى قسم الشعر والرواية مجدداً وقبل تسرعي وأخذ كتابٍ آخر ليحيرني أكثر جاءت لي فكرة أفضل وهي البحث في قسم علم النفس، نعم سأجد في علم النفس من يشرح ما أريد معرفته من العلماء، فهم يحبون التحدث في هذه الأمور الخفية، بل يقتاتون منها. خطوت خارجة من القسم لأصطدم بحاتم والذي كان قادماً إلي ولم

أنتبه له، مسك ذراعيّ محاولاً تخفيف الاصطدام وجذبني إليه دون قصد، أو ربما بقصد، لا يُهم. أصبح للهواء حيز ضيقٌ بيننا، وعينانا تحدقان ببعضهما وابتسمنا سوياً ثم ضحكنا وسكتنا. ابتعدت للخلف فجذبني إليه -هذه المرة بقصد- التصق صدري بصدره ورأسي بالقرب من فمه، فقبل جبهتي بخفة، طويلاً، لم أنتبه. فعندما حدث ذلك، جاءني ما يُشبه الديجا فو، حاولت التركيز به، معرفة ما القادم ولم أر شيئاً، لم أستطع ذلك لأن ما احتل عقلي وقتها هو ذلك الصوت، نبضه، والذي بدا كخطوات عداءٍ يكاد يصل إلى راية النهاية، أنصتُّ إليه بكل جسدي، لم أعر لقبلته أي اهتمام. عندما وصل ذلك العداء وخفف من سرعته، رفعت رأسي إليه لأراه يحمرُّ خجلاً ويعتذر عن تقبيلي بشكلٍ مفاجئ، -لا عليك فلم أعلم-

ماذا؟ قبلتني! نعم لماذا!

لا أعرف ما أقول لك، ولكن.. هل أنت على عجلة من أمرك؟

لا كنت فقط ذاهبة لتفقد قسم علم النفس.

ما اسم الكتاب الذي أردتيه؟ سأجعل أحدهم يحضره لك الآن من المستودع.

أحقاً، هناك من يقوم بذلك عني!

نعم إذا أردت، فأنا مالك هذه المكتبة وهذا ما جعلني أنشر كتبي هنا، ويقصدني المعجبون إذا أرادوا توقيعاً أو لقاءً، أنا دائما هُنا، هذه المكتبة بمثابة بيتٍ لي.

ماذا هناك لأعرفه أيضاً، من الجلي أنني أجهل الكثير عنك حضرة المالك المؤلف.
هذا ما كنت أسألك عنه منذ قليل، إذا كان لديك بعض الوقت أحب قضاؤه معك إذا سمحت.
حسناً، ولكنني لا أملك عنواناً معيناً لأبحث عنه، كنت سأطلعُ فقط، وستبدأ بتفسير تلك القبلة.
- يبتسم طويلاً رافعاً رأسه باحثاً عن مخرج-
أتُفسّرُ القبلة؟ وبشأن نبض الحب الذي تبحثين عنه، أنت حقاً تجهلين في الحب كثيراً..
- لم أجد تعليقاً على ما قاله، أنا أعرف الحب، ولا أتجاهل فهم القبلة، ولكن النبض أمرٌ آخر-
حسناً طالما صمتِ، أعتذر أولاً على وصفك بالجهل، أنا متيقن بعلمك، كما أنا متيقن بأمر تجاهلك الآن، إنه الحياء. ونعم بشأن تلك القبلة، طوال الأسبوع الماضِ وأنا أتحجج بكتابي لسماع صوتك والاطمئنان عليك، لم أستطع تجاوزك لو للحظة، رفعت رأسك ذلك اليوم ونظرت إلي بعينان اكتسحت ثنايا قلبي وأنارت أملاً في روحي. أنا أكتب عن الحب كثيراً، كالكتاب الذي اقتنيتيه، ولكن الكتابة بالنسبة لي حاجة أساسية، فلا أكتب ما أحتاج بل أحتاج إلى أن أكتب. إن النصوص التي رأيتيها والمحتوية على تفاصيل دقيقة عن الحب ماهي إلا من وحي الخيال. لم أشعر بها قط.
- لحظة، أتقول لي أنك تكتب شيئاً لا تعلمه؟
نعم، إن الكتابة، إذا أردت دقة التعبير عنها هي "كوضع الحبر".

لم أفهم.
تخيلي معي أن لديك ورقة منحوت عليها نص ما بشكل شفاف، وأردت أن تجعلي هذا النص مرئياً ما الذي تقومين به أليس إضافة الحبر عليه؟
بلى.
هذا الأمر مع الكتابة، عندما أشرع في كتابة نص فأنا أفتح دفتري متلهفاً للكتابة، لا أعلم ماذا سأكتب ما نوع النص وما أحداثه، أنا أجهل كل شيء عنه لا أعلم سوى عن رغبتي وكأن النص الشفاف يصيح بي لأملأهُ حبراً، فأفتح دفتري وينطلق قلمي للقيام بذلك، وإذا أنتهيت ألقيت نظرة على النص كنظرة القارئ لكتاب جديد.
الآن فهمت..
نعم هذا هو الأمر، فأنا، وكما قلت إن كنت أسهبت في الكتابة عن مشاعر الحب فأنا لم أجرب منها إلا القليل فقط، وأنا.. بلا ريب... أنا واقعٌ في حبك.

٥

*****

-أُحبكُ جداً، أُنظري إلي.، سيكون كل شيء على ما يرام.
-ما هذه الموسيقى الصاخبة..
البركة! ستسقط علي!!

*****

أنجبت طفلين، بعد أن رحلتُ عن حياتي السابقة. اضطررت إلى الرحيل عن زوجي وابنتي أمل رغمًا عنّي، لم يكن فراقهم بالأمر السهل أبداً، ولم أتخيل في حياتي مجيء ذلك اليوم. ولكنني الآن، وبعد عشر سنواتٍ من رحيلي، ألتقيتُ بأحدهم، رجلٌ اسمهُ صالح. وجدت في صالح ما كنت أبحثُ عنه طوال تلك السنين، السلوان. ما فعلوه أمل وأبوها أمرٌ فاق طاقتي على التحمل، لم أستطع المضي بعد رؤيتها

بذلك الحال، على حافة الموت ولعدة مرات، دفعتني وبشدة للرحيل. تزوجت من والد أمل، قيس، عندما كنت في العشرون من عمري، بعد قصة حبٍ في أولى سنين الجامعة. ألتقيتُ به في بهو كليتي، كان هناك لتصوير بعض الأوراق، بعد أن تعطل معمل التصوير في كلية الحقوق. كنت أدرسُ الأدب، الشعر الجاهلي على وجه الخصوص، وكنت في معمل التصوير ذلك اليوم لشراء نسخة من مخطوطة أثرية نادرة جلب لنا أستاذ المادة منها نسخة حصرية لإرضاء شغفنا بالشعر. كانت تلك النسخة لكاتبٍ ظهر بعد عصر صدر الإسلام ووثّق بالكتابة لأول مرة قصيدة للمتنبي، قبل أن تتناقل الأجيال قصائده الأُخرى وتحفظها الكتب الحديثة. دخلتُ إلى معمل التصوير في ذلك اليوم في عجلة من أمري، حاولت اجتياز الطابورِ الطويل بالنداء ولكن لم يجبني أحد. فوقفت لأنتظر، تنهدت طويلاً، كنت أرتدي تنورة صفراء وقميصُ أبيض بياقة. وكانت خصلات شعري المنسابة تصل إلى منتصف خصري بطوق أصفر يرفعه عن عيني. طال انتظاري في الطابور الذي لم يكن يتزحزح شبراً. فشفطت الهواء الذي كان في الغرفة كله وأخرجته قائلة: واحرّ قلباااه. فإذا بمن أمامي "قيس" يلتفت إلي، نصف التفاتة، متعجباً، فينظر إلى الجانب الآخر تداركاً ثم يعيد النظر إلي بعينان كرحب السماء، فيبتسم، نصف ابتسامة، ويعود للالتفات إلى الأمام. وإذا بعقلي يُنشدُ -كان أحسن خلق

الله كلهم-. انتظرنا، فلم يتحرك إلا اثنان، وبقي أمامي ثلاثة. لم يجد الأول مراده وبقي اثنين، انتهى الأول بسرعة وإذا بدور قيس يأت فيتنح ليفسح لي المجال قبله منزلاً رأسه بابتسامة وحاجبه للأعلى. فيُكمل عقلي: وكان أحسن ما في الأحسن الشيم. لم أنس أن أشكره تقدمت وانتهيت من التصوير وهممت بالخروج فلم تستجب قدماي. -أراني شخصاً عادلاً، فلأعدل معه-. انتهى قيس من التصوير وأتجه إلى الباب وعيناه تتفقدان المكان خلفاً، حتى سقطت علي فانتهت رحلة تفقدها. تقدم إلى واثق الخطى، لم يقل شيئا ولم أقل، اكتفينا بحديث عينانا وكانا حواراً مثرياً. -كأنما قال وقتها العين والروح والوجدانُ يعرفني -، ووحدي من أجهله. اجتمعنا على كوب قهوة في ظهر نفس اليوم، لم نتفق مسبقاً، لم يعرض على الأمر ولم أعرضه، فقط مشينا حتى التم شملنا حول ذلك الكوب. أصبحنا نلتقي كل يوم، نبحث عن أي حجة لإعادة لم شملنا. كانت حجج قيس ضرب من الجنون، فقد تعمد مرة، وحتى نلتقي في جدولنا المزدحم، إلى افتعال حريق في دورة المياه لإطلاق جرس الإنذار لكي نجتمع في نقطة الإخلاء. لم يكن الحريق خطراً بل كان فقط بضع أوراق أشعلها بالقرب من جهاز التنبؤ بالحريق لكي يفتعله. موقف بعد آخر، جعلني أُقر بمدى جنونه بي، أو حتى بدوني. بعد سنتين من الدراسة الجامعية وافقت على الزواج منه، بعد إصرار شديد من جانبه، ومرافعاتٍ كثيرة رفعها

لقلبي ليقضي بيننا بالحق، لاستعجال ذلك الأمر ليكون بقربي دائما ويتوقف عما يقوم به من جنون. تزوجنا بالفعل، وكانت حياتنا، كأي زوجين جديدين، سعيدة جداً، لم تنطفئ لهفة أحدنا للآخر حتى بعد سنتين من الزواج، وتلك فترة مرضية بالنسبة لما أسمعه من تجارب صديقاتي، والآتي بدأن يضجرن من حياتهم الزوجية بعد ثمان أشهر. كنا أنا وقيس نحب الشعر جداً، أعتقد أنه تعلق به لأجلي، لأجل اختطاف قلبي من شيء قريب منه، ولكن لا يهم فقد كان يوليه أهتماماً بالغاً حتى أنه بدأ بكتابته، وأبهرني بمحاولاته الصادقة جداً -غير الموزونة بدقة-. كان من أكثر ما نأمله ومنذ بداية ارتباطنا هو إنجاب فتاة تزهر عالمنا. فكما يعلم الجميع أن الفتاة تختلف عن الولد، فهي حنونة، مراعية، لطيفة، هي كالنور الذي يضيء عتمة هذا الكون. قررنا الإنجاب بعد سنة ونصف من زواجنا ولكن تأخر حدوثه لسنوات. ذهبنا لدكاترة بلدتنا -هضاب- جميعهم، ولم يكتشفوا ما الخطأ، كلانا قادرٌ على الإنجاب وبصحة جيدة. انتظرنا ست سنوات لحدوث ذلك الأمر. وبعد تلك الفترة، استيقظت بألمٍ في بطني، وشعور بالغثيان والإمتلاء، ذهبت مسرعة إلى دورة المياه لأتقيأ، هذا أكيد من العشاء المكسيكي الذي تناولناه الليلة الماضية، سآخذ حبوباً لتهدئة معدتي. خلدت إلى النوم مجدداً، بعد أن استيقظت من ثمان ساعات نوم!، استيقظت وقد عم الليل أرجاء بيتي، وقيس في مكتبه للعمل متآخراً على

قضاياه، عاد لي الشعور بالغثيان مجدداً فاتصلت به، جاء مسرعاً وحملني إلى المستشفى وشرح لهم أننا قد تناولنا طعاماً جديداً في ليلة الأمس؛ وربما يكون السبب فلدى زوجتي معدةً حساسة بعض الشيء. طمأنوه بعنايتهم لي وطلبوا منه الانتظار في الخارج. أجروا علي التحاليل الخاصة بالتسمم من ضمنها عينة دم ليغطوا أي احتمال. عاد زوجي إلى بعدما رحلوا لانتظار نتيجة التحاليل، غفوت مجدداً. استيقظت على مجيء الطبيب، مبروك أنتِ حامل. لم نفقد الأمل طوال الست سنوات ياعزيزتي، لم نفقده! نعم عزيزي آخيراً تحقق أملنا. فلنسمها أمل! ما رأيُك؟ أُحب ذلك جداً. عدنا إلى المنزل بحماسة وسعادة غامرة لم نشعر بمثلها مسبقاً.

٦

*****

- أتفضل قضاء الوقت في الكتابة أم في القراءة؟
- في التفكير بِكِ.

*****

مر شهرين على اعتراف حاتم بحبه لي، ولم أتمالك نفسي أمامه فبعد ذلك بيومين اعترفت أنا الأُخرى. فلقد كان مذهلاً، كان من أولئك الذين يُشبِّهونَ ما يحدث لهم بمقطعٍ ظللوه في رواية ما، وتظهر في أعيُنهم دهشةً بريئَة عند تطابُقِ ما تنامى في مخيلتهم عبر السنين، بواقعِنا. وما جذبني إليه أيضاً، هو تِلك الخفَّة الناعمة في ابتسامتِه متى ما التقت عيني بعينه التي تبادر بالإفصاحِ عما في قلبِهِ دون مواربة، وذلك اللين الذي يجعلُ من حدَّتِها دواءً. ولدى حاتم ابتسامةً طفوليةً بريئةً؛ لم تتفقُ معها عينيه يوماً.. صمتُهُ مغري، وإذا تكلم خلط ارتوائي بظمَئِي، ولقائي بشوقي، واعتزالي بإقبالي، وعدمي بوجودي، واختلط أمري علي أأنا هو أم أنا.؟

وما أضمرته في نفسي عنه، هو هدفي الأول من الاقتراب منه، الذي نعلمه جميعاً، والذي تخليت عنه الآن، فمنذ أن دخل عالمي، اكتفيت بنبضه لكلينا. وما أعجزني أمامه هو قوله عند سؤالي لشيءٍ: " خُذي ما شئتِ، لعينيك دينٌ علي، فوق الروحِ روح، وفوق كُل ذي محبّةٍ حُبُكِ، وأنتِ، أمل، حياةُ على حياة."

على الرُغمِ من بلاغة حاتم وفصاحته وكتبه الذي ألفها ومن ضمنها ديواني شعر، فإنه في كُلِّ مرة يحاول فيها إلقاء شطرٍ لي، يتبعثر لسانه، ويتكئُ على ارتجالِ عينيه، والذي يُغني كثيراً! إنهُ ممن لم أعلم وجودَهُم، الناهبون الواهِبون، أولئك الذين يُسمَّى أخذُهم عطاء، وبقدرِ نهبهِ تكتمِلُ هبتِه!

بالرغم من كل ما أشعر به اتجاه حاتم، فإنني ينتابني الخوف دائماً من أن أعود لهوسي السابق، ومن فقدانه بعد أن أعطى لحياتي واقعاً.

*****

أرى نيراناً حمراء قادمة من بعيد، صوت غدير الماء يشتد، أنني أسمع نبضي بخفة.

*****

-كيف ترى أمل في عينيك؟
-أنتِ أشبه بنسمة الهواء لمن خنق له الخذلان انفاسُه.
أنتِ أشبه بالظل، لم يبعدكِ نور أي نجمٍ ساطع عني ولو لبرهة.
أنتِ أشبه بجمال تلك النغمة، حين يختلط صوت ضحكتك بلحن قلبي.
وأنتِ أشبَهُ بمساءِ منتصف الشهر، تلك التي لم تتخلف دهراً عن احتوائك.
أنتِ أشبَهُ بسهوٍ جاء في صخب، ليري صاحبه جمال جانِب الصمت.
أنتِ أشبه بمحاولة النثر التي صنعت قصيدة.
أنتِ أشبه بسهوٍ جاء في منتصف سهوٍ ليُصحح مساره، -كحال حياتي من قبلك-.

أنتٍ أشبهُ بكلامٍ لم يقُلهُ أحد، جاء في وقفات الصمت وتخلل التلعثُم.

أنتِ أشبَهُ بأبنائي، أو بأحفادي...!
اختلط الأمر علي..
ولكن ألستِ ذاك الوجه الذي سأُكمِلُ معه للأبد!

٧

أنا الابن الأصغر لأُمي، اسمي أمل. فارق العمر بيني وبين أخي الأكبر هو ثلاث سنوات. أنا الآن في الثامنة من عمري وأخي عمار يبلغ أحد عشر سنة. أشعرُ بأنني مشؤوم، نوعاً ما، لا أعلم حقيقة هذا الشعور إنه فقط ينتابني في بعض المرات عندما أسمع بعض القصص من حياة أمي السابقة من أخي الأكبر، والذي بدوره تنصت عليها وهي تشكي إلى خالتي ونقل لي الأخبار. عرفت أن أمي اختارت لي اسم أمل تيمناً بأُختنا الكبرى أمل، والتي لم نراها في حياتنا وترفض أمي الحديث عنها مطلقاً. فقد كانت، وقبل أن نواجهها بحقيقة سماعنا لمحادثاتها هي وخالتي، تنكر أمر وجودها. إنني أتلقى مصاعباً كثيرة بسبب اسمي، هناك خلط كثير في جنسي بحكم أن اسم أمل اسمٌ يستخدم للجنسين ولكنه عموماً للنساء. أنا أتعرض للتنمر أحيانا بين زملائي بسبب هذا الاسم أيضا. أشعر بأنني مشؤوم لأنه اسمي، ولأن أمل تسببت في ضياع والدتي وحزنها، أنا لا أحبها ولا أتمنى لقاؤها

يوماً، فمن حديث والدتي هي جلبت لها الكثير من الحزن والمعاناة، هي وأبيها. أنا لا أعلم حقاً ما الأمر، ولكن اسم أمل يجعلني أرى الأمور بسلبية. قال لي عمار أنه تنصت على أمي مرة فسمعها تقول لخالتي أنها هي السبب في هدم حياتها السابقة -أمي وليس أمل- وأنها هي من تخلت عن أختي وهي بحاجتها كثيراً، فقد كانت مقصرة في حقها ورعايتها حتى أصبح هذا مآلها. سألت أمي في اليوم التالي عن معنى كلامها السابق فراوغتني وهرعت إلى المطبخ لتحضير بعض الكعك المفضل لدي، وتمكنت من إسكاتي. والدي، لا أظنه يعلم شيئاً مما حدث في حياة أمي السابقة، فقد سألته ذات مرة عن زيارتنا لعائلة أمي القديمة فأجاب بالإيجاب، ولكن عندما طرحنا لأمي الأمر رفضت بشدة، وكادت أن تشتاط غضبا، وأمرتنا بعدم ذكر الأمر مرة أخرى، مطلقاً ما حيينا. وقالت بعدما حاول أبي التهدئة من روعها: أن عائلتها السابقة ليست أناس أشرار أو أي شيء مشابه، ولكنها هي من اختارت هجرانهم ولا تستطيع الظهور مرة أُخرى في حياتهم بعد الذي فعلته بهم. أمر أمي وحياتها السابقة غريب ومبهم، جعلنا وأخي ننسى وظيفتنا كطالبين ونبدأ بعملياتنا التحرية في المنزل، بالتنصت عليها وبقراءة مذكراتها اليومية، لنعرف الحقيقة.

٨

لأبي صديق مخلص، كان معه في نفس الحي منذ أن كانوا طفلين، ذهبا إلى نفس المدرسة، والتحقا بنفس الجامعة حتى أنهما اتفقا على نفس التخصص، كلاهما يدرسان القانون. بعد تخرجهم انفصل عليٌّ عن أبي بحيث أنه افتتح مكتب محاماة خاص فيه، ولكن من ظن أنهم سيفترقوا!، مكتب أبي في الدور الأعلى من نفس العمارة. تزوج علي بعد أن تخرج من الجامعة بممرضة تشتغل في أحد العيادات الخاصة، أنجبت له طفلين حتى الآن. علي، والذي أصبح لديه حياة مليئة الآن، لم تنقطع عادته عن زيارة أبي مرتين في الشهر، وذلك بعد أن ترك أبي مكتبه لظروف خارجة عن إرادته. وسّع علي مكتبه ليكون مقسوماً على دورين، مكتبه الأساسي ومكتب أبي، وذلك وفاءً منه وحراسةً لمكان أبي ومكانته. لم تكن حياته مثالية مطلقاً مع أنها تبد كذلك من الخارج، فقد رُزق بأول ابن له، من ذوي الاحتياجاتِ الخاصة، وتبعه الثاني دون أطراف. كانت زوجته الممرضة تعمل في عيادة متخصصة في تجارب العقاقير الحديثة، ترعى

المرضى هُناك وقسمٌ من عملها هو تتبع اكتمال دمج المحاليل. كان لديها مديرٌ جشع جداً، يبيع ضميره وإنسانيته بثمن بخس. بعد أن بدأ المختبر باستخراج ترخيص لتجربة العقاقير الجديدة على الحيوانات بالطبع، لم تعجبه النتائج على مر السنوات الأولى، فالانتقال من التجربة على الحيوانات إلى نتائجها إلى عواقبها إلى وصول الإذن لها للاستخدام الآدمي يستغرق إلى الأبد، بنظره. قرر في بداية سنة جديدة أن يقطع الطريق الطويل في تلك العملية وينتقل من النهاية إلى البداية، يبدؤها على الإنسان ثم يسميها تجربة على الحيوان. استغل لهذا الأمر فئات المجتمع البائسة التي لا تقدر من الحياة سوى الكسب، لا للحياة بل للكسب فقط. اشترى، بشكل حرفي، بشراً ليقوم بتجاربه عليهم. وبعد استمراره في القيام بذلك الأمر لعدة أشهر ظهرت له نتائج مبشرة وحقق مكاسب عالية في تلك السنة، حتى قرر أن يقوم بمجازفات أكبر للسنة المقبلة ويستورد عقاقير ممنوعة في الأسواق ولم تصرح ليقوم بتجربتها واحتكار توزيعها بعد أن تنجح، لأن لديه أقصر الطرق لذلك. وبالفعل قام بذلك وجلب تلك العقاقير إلى معمله حيث تعمل حبيبة زوجة صديق أبي علي. في أحد الليالي من عملها وبعد بدء دمج بعض المحاليل الجديدة حدث انفجار كيميائي كانت ضحيته حبيبة ومع يعمل معها من الممرضات. استنشقت حبيبة في ذلك اليوم كميات عالية من المواد الكيميائية الخطرة غير المصرحة

مما كاد أن يؤدي بحياتها، ولكنها نجت بأُعجوبه، ولم ينج أبناؤها.
علي والذي لديه ابنان ليعولهم ويرعاهم، وزوجة ومكتب بدورين، يأت إلى أبي جمعتين في كل شهر، حاملاً الي بعض الأزهار من حديقته، لعلمه بحبي الجم للأزهار، ليخبره بالمستجدات في حياته ومكتب المحاماة ومحاولاته لإيجاد علاجٍ لأطفاله، بالأموال الهائلة التي يمتلكها. أراه في كلِ مرة يأتي فيها، لا يكون على طبيعته أبداً بل ثمل! - ليس ثملاً ولم يذق الخمر في حياته عزيزتي لم تقولين ذلك- بل أراه ثملاً، يأتٍ مترنحاً لا يكاد أن يقف، ويقعد على الأرضية ويبدأ بالبكاء والشكوى، - هذا ما يقوم به الحزن وثقل الحياة على كاهليه يا ابنتي وليس الثمالة- لا أعلم، اعتقدت ذلك. على أية حال، يقوم أبي بمواساته ومؤازرته بطريقته الخاصة، يشيد بنظره دائما إلى نجاحاته المهنية، -والتي لا تقارن، لم أر علي يخسر قضية في حياته! -. فيرحل من لدينا في كل مرة بابتسامةٍ تقطرُ دمعاً؛ حزناً ورضا.

٩

*****

شقوق هذه الرواية؛ ستلتئم.

*****

عزمنا أنا وأخي الأكبر عمار أن نبدأ التحري في أمر حياة أمي السابقة. استيقظنا ذات صباح يوم عطلة وبقينا في الفراش لوقتٍ طويل، حتى بادر عمار بسؤالي عن خطبي فقلت له إنني أتساءل كثيراً عن أمر صاحبة اسمي، إذا كانت أمي تحبها لدرجة أنها أعطتني اسمها بعد كل تلك السنين فلماذا لا تسمح لنا بلقائها والتعرف عليها، أنا لا أخفيك القول، أكرهها، ولكن لم أجد مبرراً لكرهي، فقط لشعوري أنها آذت أمي بشكلٍ ما، ولكن محادثات أمي مع خالتي ولومها لنفسها يجعلني في حيرة من أمري، ما الحقيقة الغائبة ومن المخطئ في حق الآخر! - صدقت يا أمل وهذا

الأمر هو ما يشغل بالي كل ليلة حينما اذهب لمضجعي وما يبقيني في الفراش صباحاً لمحاولة فهمه، ما الذي بين أختنا أمل وأمي، وهل هن يكرهان بعض أم هذا الألم العميق سببه الحب وأين هي الآن؟ سمعتُ من والدي خبر أن مكتب والد أمل تغير اسمه لمكتب محامٍ اسمه عليّ، لا أعلم ما الذي حصل بالضبط فقط سمعت أنه ترك مهنته ومكتبه، ما الذي حدث لهم والآن وأين يقطنون؟ - لا أعلم ولكنك ستساعدني لمعرفة ذلك يا أخي، ما الذي تذكر سماعه من محادثات أمي يمكنه مساعدتنا على اكتشاف الأمر؟ - لم أستطع سماع الكثير فقد كانت أمي تبكي في معظم الوقت وخالتي تحاول التهدئة من روعها بقولها إن ما حدث لم يكن خطؤها وأنهم بخيرٍ الآن وفي مكان آمن ولا داعي للقلق بشأنهم.

*****

كيف تبدو وجوه الناس من الخارج، أهي كما يبدون من الداخل؟

*****

قمنا أنا وأخي من فراشينا وخرجنا لغرفة الجلوس فإذا بأمي وأبي يستعدان للخروج للغداءِ سوياً، هذه عادة أبي كل عصر سبت، أن يعد لأمي موعداً رومانسياً،

وهذا ما أسمته "سلوان". ذهبا عند الساعة الواحدة والنصف وبقينا في المنزل لوحدنا. لقد ربتنا أمي على المسؤولية وحسن التصرف منذ أن كنا صغاراً - أطفالاً أم رضع؟ - فقد اعتدنا على التصرف بمسؤولية في غيابها، لم نكن لنحرق شيئا أو نلعب بالكرة في الداخل فنحطم الأواني، كنا ولدين صالحين، وما زلنا. بالرغم من علمنا بخطئنا بالتنصت على أمي واستكشاف أسرارها، فلم نستطع التوقف عن ذلك حتى نعلم حقيقة كل شيء. إن العيش بجهل -نعلم أنه مجهول- لقاتل، بخلاف العيش بجهل أمر لا نعلم بوجوده ولا بجهلنا له. سألت أخي عمار عن خطته لبدأ استكشاف حياة أمي، فقال نبدأ بغرفتها. دخلنا غرفتها والمحتوية على سرير أبيض لنفرين، خزانة بيضاء بأربعة أبواب، تسريحة بيضاء بكرسيين، كمدينتين، طاولة قهوة خشبية جانبية - بيضاء أيضاً- بكرسيين، أراهن على أن أمي كانت تقعد على هذه الطاولة في كل مرة استمعنا إليها تحدث خالتي. بدأنا بالبحث في التسريحة فلم نجد سوى أدوات زينتها وبعض الأشياء الخاصة بالنساء وحليهن، انتقلنا إلى الخزانة فلم يكن هناك سوى ثيابهما هي وأبي، انقسمنا مسرعين لتفقد الكمدينتين فلم يحتوين على أي شي يمكنه إرشادنا لعالم أمي السابق. استلقينا على السرير متأملين بالسقف - الأزرق زرقة السماء- وأخذنا نفكر بصوتٍ عال، قفز أخي منتصراً: لقد وجدتها، إننا نبحث في المكان

الخاطئ، ركز معي، أبي كمثلنا لا يعلم شيئا عن حياة أمي السابقة فمن المستحيل أن تحتفظ أمي بشيء عنها هنا، إن الأسرار كلها موجودة في مكتبة أمي! قفزنا مسرعين إلى مكتبتها، والتي لم تكن كشيئا من بياض الغرفة، كانت معتمة جداً، تكدست فيها الكتب حتى غطت نوافذها فلم يكن يستطع ليدخلها أي نور. أنرنا مصباحاً وجدناه على الطاولة الوحيدة المرتبة في المكتبة، وهي حيث تجلس أمي، جلست في مقعدها وأخذت أبحث بعيناي عن أي شيء يمكنه إرشادي، فتحت كتابين كانا على تلك الطاولة فلم يكونا سوى دواوين شعر، وجدت دفتراً أحمراً أسفلهم، فتحته فإذا به ليس كالكتابين السابقتين مطبوعين، بل هو مكتوب بخط اليد. نظرت إلى أخي عمار وسألته لماذا هذا الكتاب مختلف عن السابقين؟ - دعني أنظر.. إنه خط أمي! هذا كتابُها هي، هي من ألفه! ابتعد عن الكرسي دعني أقرأه لك لعلها كتبت عن قصة حياتها. قمت عن الكرسي وجلس أخي عمار وبدأ بأولى صفحات الكتاب السري، فإذا به يتحدث عن الأمس؟! عن يوم إمس وما قمنا به منذ استيقظنا حتى رقدنا! - ما الذي يجري؟ أتراقبنا أمي كما نقوم نحن أم ماذا؟ - لا أيها الأبله إنها تكتب مذكرات لحياتها! انظر إلى التواريخ بالأعلى، دعنا نبحث عن تاريخ صفحة قبل أكثر من اثني عشرة سنة، فلنقل أربعة عشر وذلك قبل التقاء أمي بأبي. كان الدفتر كبيرٌ جداً وذو غلاف مميز عن بقية الكتب، بحثنا فيه صفحة صفحة فلم نجد أقدم من

ثلاث سنوات. ملأتنا الخيبة لتضيق علينا نطاق الغرفة المكتظة بالكتب. قام عمار ليبحث في كرتون وجده أسفل الطاولة عند قدميه، فإذا به يجد مزيداً من الكتب بنفس الغلاف الجلدي الأحمر الذي بين أيدينا. نفضنا الغبار عن الأول وبدأت بتفقد تواريخه في الوقت الذي أخذ عمار فيه باستخراج البقية، وجدنا أحد عشر مجلداً لأمي، تفقدت الأول فإذا بتاريخه ينتهي لسنتين بعد الثلاث سنوات الموجودة في الأول. نفضنا الغبار عن البقية وتفقدناهم حتى سئمنا وقفزنا إلى المجلد الحادي عشر-بحسب ترتيب إخراجهم من الصندوق- بدأ عمار بالقراءة من منتصفه: "إنني في شهري السادس الآن، أخبرني الطبيب بالأمس أنني أحمل طفلة، وسأدعوها أمل، أمل هو اختيارنا منذ أن علمنا بأمر حملي، ومن حسن حظنا أنه اسمٌ يصلح لكلا الجنسين..." توقف عمار هنا وقال هذا مضيعة للوقت، بحث في ذلك المجلد كاملاً فإذا به تفاصيل شهور حمل أمي الخامس السادس فقط. أغلقه وفتح المجلد العاشر وبدأ يقرأ من أوله: "بدأت تنتكس صحتي، لا أعلمُ لماذا، ولكن الطبيب حذرني من بذل أي مجهود. ليت الأمر كان في يدي، أنا لا أحب تناول الغذاء الصحي، بل يسيل لعابي عند أكل المطاعم السريعة ولا أستطيع مقاومة رغبتي، كانت تغذيتي في شهور حملي تعتمد عليها وعلى مشروبات الطاقة لكي تزيد من تركيزي في عملي وهو التحقيقات في أعمال نقاد الشعر الجاهلي. ذهبت إلى المستشفى

الاسبوع الماضي لاستلام نتيجة تحاليل دمي فإذا بطبيبي يشتعل غضباً من انتكاس تحاليلي في كل مرة عن سابقتها..." أكمل عمار لماذا توقفت! -هذا لا يعطينا شيئا فنحن نعلم أن أمي أكملت حملها بخير وأنجبت أمل وهي تعيش الآن في عالم ما. أعطني المجلد التالي. أخذ عمار المجلد التاسع وشرع بقراءته: "هذه أول محاولة كتابة لي بعدما حدث، إنني شخص شنيع، لا أعلم، فهم يقولون لي أن ما حدث لهم لم يكن ذنبي! إنهم يأتون لطمأنتي كل يوم ولكنني لا أطمئن" -اعتقد أننا وجدنا ضالتنا قرّب المصباح. أكمل عمار:" إن كل شيء يبدو مشوشاً جداً، لا أستطيع تذكر ما حدث بالضبط، فقط أتذكر نيراناً حمراء تأتي من كل حدبٍ وصوب، نيرانا تتسارع لالتهام ابنتي وزوجي! ولكنهم بخيرٍ الآن."

*****

أشعرُ بالبرد الشديد، بالرغم مما يكسوني من ثياب، وقطراتِ الرحمة الدافئة التي تغمرني.
أرى انعاكسي في بركة ماءٍ أمامي، وجهي مضيء.
الظلامُ من حولي يقل شيئاً فشيئاً، أرى نوراً أحمر قادمٌ ليضيء المكان.
بركة الماء، كلما أطلت النظر فيها بللتني!

*****

١٠

-أبي، كيف أبدو؟
-كوجه القمر.
لم أر شكلي مسبقاً، بجدية، لم أنظر في حياتي إلى ما يُسمى بمرآة. بيتنا لا يحتوي سوى على جدارن فارغة، لا توجد أي مرآة في حياتنا.
موضوع المرآة سبق أن طرحته في وجود أمي، أمرٌ شغلني منذ الأزل، كيف أبدو؟ عندما سألت أمي وأبي ذلك اليوم أجابو بأنه كانت توجد لدينا مرايا في أنحاء البيت ولكن ذات يوم حصلت حادثة ومن بعدها قاموا بإزالتها جميعاً. الحادثة -بحسب أبي واتفاق أمي- أنه كانت هناك مرآة كبيرة في مدخل البيت، وذات يوم عادت أُمي إلى المنزل وكان هناك كلب الجيران يتجول وحيداً في الخارج، وعندما رآها أسرع إليها ينبح وهي لديها فوبيا الكلاب المسعورة، فركضت بكل سرعتها إلى داخل البيت، دفعت الباب بكتفها - والذي بدوره يُغلق من نفسه- واصطدمت بالمرآة الكبيرة في المدخل، وعلى أثر اصطدامها سقطت

عليها زجاجة كبيرة رست في منتصف قدمها وثبتتها على الأرض وهي تنزف. هرع أبي إليها بعد أن سمع صوت الاصطدام ووجدها بذلك الحال وأسرع بها إلى المشفى. فمنذ ذلك اليوم، وبسبب إصابة قدم أمي -التي لم أر فيها خدش طوال حياتي! - اتفقوا على إزالة جميع مرايا المنزل وعندم إدخالها إلى بيتنا مجدداً.

*****

ابنتي الوحيدة وثمرة فؤادي أمل، لا يشبهها شيء سواها، هي أجمل من أن تشبه بالبدر، وأصفى من أن تقارن ببياض الثلج، وأرقُ من أن تقرن بالزهر. في يوم ولادتها شهدت عيناي جمالاً يوسفي لم تحلم بوجوده على سطح الأرض، لها عينان وسيعتان خضراوتان، وأنفٌ صغيرٌ دقيق، وشفتان أشبه بثمرة التوت الأحمر الناضجة، وحاجبان مرسومان كإطارٍ متقنٍ لوجهها بشعرٍ كثيف. وجنتيها كظهر التفاح، ومبسمها ككلمة انشراح، وجبينها كتوهج القمر. لها خصل شعر بني حريرية، إذا نزلت على وجهها بدا كأنه ذوبان آخر خيوط الليل على شمس الضحى. لابنتي قلبٌ رحبٌ كالسماء، بل الكون، لم أراها تتذمر قط مهما حدث، كانت تهزم عدوان الحياة ببريق الرضا في عينيها، تلك التي لا ترى، وفي غمرة الألم، سوى الحبُ والاطمئنان.

*****

لم أر كيف أبدو يوماً إلا في عينا أبي، عيناه واسعتان جداً تُمكن من يراهما من إيجاد نفسه. إنني وللاستعداد للخروج لجامعتي كل صباح، أسرّح شعري في عيني أبي، ولكن وبالرغم من كل الفضاء التي تحتويه عيناه، إلا أن صورتي ثابته لا تتغير، مهما حاولت بتغيير تعابير وجهي، فإنني لا أراه إلا بشكل واحد، كما في عيناه، المتغير فقط هو تسريحة شعري.

*****

رواية تُروى بعقلان؛ لتصب في صوتٍ واحد.

*****

-لطالما كان لأبي الفضل في كل خيرٍ يحدُث في حياتي.

*****

-لدى صوت عقلي القدرة على إفساد كل خير.

*****

بعد طلاق أبي من أمي والمشاكل التي لحقته في مكتب المحاماة ترك أبي كل شيء وأبقى نفسه في معزلٍ عن العالم، في بيتنا، ليكتفي بكتابة الشعر والرواية. اعتزل أبي الحياة لينعم بما تبقى بها من خير.

حاولت مراراً وتكراراً إقناعه بفكرة رجوعه إلى عمله أو إيجاد آخر، أو فقط الخروج للقيام بأي شيء، فرفض. يتحجج أبي بعدم خروجه بأنه، ومما مر عليه من مصائب ومشاكل، سيجلب المزيد منها للمنزل إذا عاد من الخارج، وأنه ومنذ اكتفى بقضاء حياته للاهتمام بي والكتابة، لم يجد في العالم الخارجي شيءٌ يغريه للخروج.

لم أستطع الضغط عليه في هذا الأمر، فقد مر أبي وطيلة حياته بشتى أنواع المصاعب. كان أبي متعلقاً بوالدته كثيراً، التي لم أراها في حياتي، ولكن كنت أسمع من أمي قصص عن شدة تعلقه فيها وشدة حبها له. كانت جدتي تتمنى الصبي بعد إنجابها لستة فتيات. وأعطاها الله ما تمنت بعد انتظارٍ طويل. قيس، أبي، ولد جدتي الوحيد كان مقرباً منها كثيراً، بمثابة العينين لها التي لا ترى الحياة دونهما. عندما أكمل أبي عامه الثالث عشر توفت جدتي، دفن حياته بيديه تحت الثرى، خسر بفقدانها معنى الحياة. وبعد سنين التقى بأُمي التي أضفت لحياته بعضاً من المعاني.

أعلمُ كثيراً عن أبي وما مر به طيلة حياته، ولكنه في كل مرة يعدد فيها مصائبه، كموت والديه، وانفاصله عن أخواته، وطلاقه من أمي ومشاكل عمله التي انهته، يضيف إلى تلك المشاكل "خوفه علي من أن يصيبني مكروه مجدداً". لم أفهم معنى هذه الكلمات يوماً، ولم ألقها اهتماماً عندما كنت صغيرة، فقد كانت بمثابة الدرع الواقي لي من الحياة، فلم أسأل أبي عن معناها. ولكن عندما كبرت وأخذ إصرار أبي على البقاء في العزلة يكبر معي، انتابني الفضول لأعرف ما خطبي، بل خطوبي.

١١

اجتمعنا أنا وحاتم للغداء سوياً، كان هذا موعدنا السادس، إن لم نضع في الحسبان أمر لقاءاتِ المكتبة. مررت بالمكتبة ذلك اليوم، بعد الجامعة، وذهبنا سوياً إلى مطعمٍ بالقرب منها. كان لحاتم بيتا خلف المكتبة مباشرة. عندما انتهينا من الغداء عدنا أدراجنا إلى المكتبة فإذا هي مكتظة، بالطبع حالها كذلك فالاختبارات مقبلة بعد اسبوع. اقترح علي الذهاب إلى منزله حيث يسكن وحيداً فأجبته بالقبول. مشينا إليه سوياً مشبكة أيدينا حتى وقفنا أمام ذلك الباب الأحمر. تخطينا عتبة الباب، حيث تركنا أحذيتنا هناك، وخطونا خطوة إلى الداخل. كان منزله أشبه بالمبنى الذي تجاوزناه منذ قليل؛ المكتبة! لقد رتّب كل شيء فيه بحسب ترتيب المكتبة، أو ربما بدأ بهذا النمط هنا ثم استنسخ بيته هُناك فيها، لا أعلم.

عند المدخل كان هُناك سلة تحمل عبارات كتبت على فواصل كتب، كما في المكتبة، ولكنها هنا بشكلٍ مجاني، ثم بعد ذلك هُناك تلك الأريكة القماشية بإطارٍ

خشبي عريض منحوت من الداخل لضم الكتب -كأن تكون الكنبة محاطة برف كتب-، كما في المكتبة كذلك، ولكن وجودها هناك لم يكن مستغرباً كما الحال هُنا. لديه جهاز تلفاز واحد في المنزل كله، في غرفة الجلوس.

عرض علي -عندما رأى عيناي شاردتان في المقارنة بين المبنيين- أن يريني -ربما ليثبت الفرق بينها- بقية المنزل. مررنا بالمطبخ والذي كان على يمين غرفة الجلوس، كان مطبخاً طبيعياً -لم يتحول إلى مكتبة- فانتقلنا إلى غرفة النوم -على عتبتها اطلعنا ومضينا- كانت مرتبة بشكل مبالغ فيه، وكأنها كانت مهجورة ولم تستخدم منذ الأزل، كانت مكسوة باللونين الأبيض والذهبي، للأثاث، والأحمر للجدران. أحببت ترتيبها كثيراً، مضينا إلى فناءه الخلفي حيث كانت لديه هناك حياة أُخرى. اكتشفت أن حاتم ليس فقط مالك مكتبة ومؤلف وشاعر، بل وبستانيٌ بارع أيضاً، دُهشت بحديقته، كأنها تلك الرسمة التي لطالما رأيتها على جدران المشتل، تلك التي تصور أشجار بخضرة فاقعة وأزهار تحفها وتكسوها كما الحلي للمرأة، كان لديه أنواعاً نادرة من الأشجار، والتي تتطلب رعاية خاصة -رعاية من يقضي معظم يومه في المكتبة والباقي منه في الكتابة؟ - لم أعلق على ذلك ولم أعلم ما السر حتى الآن، ربما جيرانٌ صالحون أو بستانيٌ مستأجر ليظهره بظهر البستاني المثالي؟ انتقلنا، بعد أن قطف لي بعضاً من أزهاره النوادر، إلى غرفة

المعيشة مرة أُخرى. غابت شمس ذلك اليوم ونحن يحاول كلاً منا تحاشي إحراج الآخر.
في منتصفِ اللقاء الذي جمعنا منذُ المغيب، أثناء تِلكَ اليقظَةِ الغافلة، التي احتضنت فيها عينانا بعضها البعض، كحضن اللقاء بعدَ شوق، وكأننا لم نَكُن ولم نزل. في برهة شرود؛ رأينا أُمسية كالقادِمِ ولا تُشبهُ سواها، حينَ سئمنا وسقمنا صمتنا، حين اعتدينا ونفينا كل حاجزٍ يقطُنُ بيننا، وجعلنا منهُ جداراً يَحُفُ مُلكَنا! عندما حُمِلنا على عاتِق أنفاسنا للعناق، وتجرّدنا من سطوةِ أقدامنا على الثبات، واقتلعنا قيود الجاذبيةِ الحمقاء.، وأصبحنا، بالهوى، جزءًا من الهواء؛ بخفة لمسة، انتهينا إلى الغيوم. هُناك حيثُ يسكُنُ لهيب الحياة ليتساقَطَ المطر. في غيمةٍ مجهولة، انتهينا وابتدءنا، وتحت مطرِها كنت أزفر الشوق طمعاً لنموه وحصاده، في جِنانِ نحره المُزهِر منتصفُهُ حتى رياضِ خده، حيثُ لا يفنى الزهر ولا يذبُل.
عند منبع رحقيها، هناك أنهارٌ من عسلٍ مُصفّى تَتخِذُهُ مصباً لها. ليس تلك الأنهار فحسب من يعتاده، بل إنه حيثُ اعتدنا على السُقيا شوقي وأنا، في كل أحلامي، وخصوصاً تلك التي كالآن، في ليالي الشتاء المُحرضة، التي لا تأخُذها بيتيمٍ رحمة، تدفعُ برياحِها كُل مُعتدِل، لترميَ بهِ في دفئ أقرَبُهُم، فيَقطُنَ هُناك مُحباً رُغماً عنه!

ذلك الشتاءَ نفسهُ الذي غيّر عاداتنا، فدنونا إلى الجوع عن العطش، وإلى التخلي عن الاحتماء، وإلى السهر عن النوم!

١٢

بلغتُ الحادية والعشرون من عمري هذا الشهر. إنني الآن مديرٌ لأحد شركات السيارات التي يمتلكها أبي. تعلمتُ كثيراً عن الشخصية القيادية وصفات المدراء في السنين التي كنت اصحب فيها أبي لاجتماعات أعماله. فقد كان بعد انتهاءه من الاجتماع يستعرض علي ملاحظته العامة على المرؤوسين، أو أصحاب الأعمال، ما الذي يعتقد أنهم يفكرون فيه، يحاولون اقتناصه، خائفين منه، وما إلى ذلك من قراءاته لشخصياتهم. وبعدما انتهى من هذه المرحلة التي استمر بأداءها لمدة أربعة سنواتٍ معي، من عمر السادسة وحتى العاشرة، بدأ بالأخذ برأيي عما حصل، يستخرج مني الملاحظات ويوجهها اتجاهها الصحيح، حتى بدأت اتقن الإدراة في مجاله دون علمي. وعدني أبي أنه بعد أن اجتاز دبلوم الإداريين سيعطيني إحدى شركاته لأديرها، وهي المفضلة لدي، شركة السيارات الرياضية المخصصة لخوض الراليات. إنني ومنذ نعومة أظافري، لا اعتقد بأن الفرصة أعطيت إلي لاختار شيئاً من نفسي، جميع

اهتماماتي وميولي وأحلامي من صنع أبي، لقد زرع في نفسي حُب المال والامتلاك والاستحواذ والاحتكار و "السباق". لم يكن مفهوم السباق لدي مخصص للسباق إلى المال والنجاح -وإن كان قد بدأ بهذا المفهوم- ولكنه بعد ذلك توسع -كأول أمرٍ باختياري- ليصل إلى سباق السيارات. بدأت تجربة الأمر في السادسة عشر من عمري، بفضل أبي أيضاً وعلاقاته. فقد جلب لي إحدى السيارات الرياضية من شركته وطلب من صديقٍ له افساح يوم لي في نادي السباق الذي يمتلكه لكي أخوض التجربة، وبالفعل قمنا بذلك سوياً. في ذلك اليوم استطعت سماع نبض كل عرقٍ في جسمي من شدة تدفق الادرينالين الذي دفعته سرعة السيارة التي أوشكت أن تحلّق بنا. بعد هذه التجربة علمتُ ما مقدراً لي أن أكون، بطل رالي.

١٣

أنا الابن الوحيد لأبي، وأمي امرأةٌ محظوظة جداً لارتباطها برجلٍ بثراءٍ أبي. لطالما استمعت إلى صديقات أمي، والآتي يجتمعن في قصرنا كل اسبوع، يقلن لها أنها محظوظة جداً ويغبطنها على معيشتها. ولكن أمي لم تظهر سعادتها بحياتها إلا لبضعِ ساعاتٍ تتفاخر فيها أمامهن، وما أن يخرجن حتى تعود لحزنها واكتئابها. سألت أبي عندما كنت طفلاً عن سبب قلة رضا أمي بالرغم من كل ما يقوم به، فقال لي لا تعر للأمر أي اهتمام، فهذا هو حالُ النساء. أبي، صاحب الشركات الكبرى، قليلاً ما يتواجد في المنزل، وعن نفسي؛ أنا لم أتعرف عليه حقاً وأقضي وقتاً معه إلا في اجتماعاته التي يصحبني إليها. لقد كان أبي غائباً طوالة حياتنا، ما نراهُ من أبي وبكثرة هو أمواله، لا حضوره.

كنت قريباً من أمي، ففي حياة لا يوجد فيها سوانا لم يكن لدينا الخيار إلا أن نكون صديقين مقربين، وأصبح هذا الأمر واقعاً بحرفيته عندما بلغت الثامنة عشر.

وفي ليلة تلك السنة التي بلغت فيها الحادية والعشرون من عمري، سهرنا أنا وأمي سوياً، كنت أحاول أسعادها بكل الطرق الممكنة، ألقيت بعض النكت، قرأت لها عدة قصص مسلية، حتى أنني اقترحت أن نلعب سوياً ولم أتمكن منها. فسألتها وبإلحاحٍ عن خطبها، فأفضت الي أمراً عن أبي لم يخطر فيٍ بالي ولا أحلامي حتى:

-إن لدى أبيك حياة أُخرى.

-ماذا؟ ما معنى ذلك!

-يعني حياة أُخرى ليعيشها.

-أتقصدين شركاته؟

-لا يا بني، بل حياة كهذه.

-أي أن لأبي منزلٌ آخر يقطن فيه؟

-نعم، وهذا ما يجعلنني حزينة.

-فلنذهب إذاً للمكوث معه!

-ألم تفهم ما أقصد! ليس منزلاً بجدرانٍ فقط، بل لديه عائلة أُخرى، لدى أبيك زوجة وأبناءٍ آخرين، ووظيفة أُخرى كذلك يعمل بها لبضع ساعات ليلاً بعد تقضيته الوقت معك صباحاً في شركاته. فوالدك لم يخبر زوجته الأولى عن أمرنا ولا أمر امتلاكه لكل تلك الشركات، وصنع لنفسه وظيفة أُخرى غطاءً لحياته معنا.

تصنعت ردة فعلٍ ميتة في وقتها، وحاولت إقناع أمي بأن الأمر ليس بالجل. ولكن ما شعرت به حقيقةً ذلك اليوم، هو الخيانة! لا أعلم لماذا، فأبي لطالما كان

حنوناً معي، وشعرت طيلة عمري أنه يريد إعطائي كل شيء يملكه ويجعلني خليفة له، أيقوم بذات الأمر مع أبناءه الآخرين! ألدي أخوةٌ وأنا بكل هذه الوحدة طيلة عمري ولا أعلم بأمرهم!
اشتعلت غضباً من الداخل طيلة الساعة التي أعرت فيها كتفي لأمي للبكاء عليه.
-إن والدك مختلٌ عقلياً، يعيش حيواتٍ كثيرة، وقد ألحق الأذى بكل من أدخلهم لحياته، لا شيء مما يقوله صادقٌ تماماً، إنه مريض بالكذب. علمت من صديقة لي تعمل مع زوجته سابقاً أنه لديه طفلين من الأُخرى، ولا أعلم من اختار ليورثه منكم.

١٤

*****

"جميعنا نعيش، ولكن قد نحيا بكلمةٍ ونموت بأُخرى.
جميعنا نعيش، ولكن عدد ما نحيا من حيواتٍ أثناء عيشنا موكلٌ إلينا في بعض المرات!
جميعنا نعيش، لبعضنا حياةٌ في الخارج، وللكلِّ حيوات في داخل رؤوسِهم!
جميعنا نعيش، نستمر، ولكن قد لا نحيى أثناء ذلك!
العيش هو استمرار بقاء الروح، أما الحياة فهو لحظات استشعارها!"

-أبي وجدت هذه المسودة بخطك، ما معنى ذلك؟

*****

١٥

*****

"اشتهي أن أكتُب سطراً لا يُقرَأ،
ولا أعيرُه أيةَ عاطفةِ،
سطراً عارياً من كُلِ ما في داخلي،
لا يُعبّر عن حس،
ولا يلمّحُ لمغزى،
لا ينطِقُ
ولا يُعادُ نُطقُه..

يمرُ واضحاً ولا يلفِتُ أي انتباه،
كنسمةِ برد في عاصفةِ الشتاء..
أو جمرة تغلي في حمم بركان..

سطراً لا يُمثلُ أحداً
-دون استثناء صاحبه، -
يأتي ويذهبُ منفرداً بلا مغزى
منفرداً في زحمةِ السطور المجاورة،
وحيداً بجانب سطرهِ التوأم،

الذي كتبه أحدهم ليُمثله،
فيمر بجانبه دون انتماء،
ماضياً كما بدأ للمنفى،
مُهملاً،
منفرداً،
منعزلاً،
كمنفاي تماماً. "

-وهذه الأُخرى وجدتها بجانبها أيضاً، ما الذي يحدث، أكل شيء على ما يرام؟!

*****

أقترح على مؤلف هذه الموسيقى الاعتزال والخروج سريعاً من عالم الفن، أهو جاد بعزف شيءٍ كهذا!

*****

١٦

أخذت كلمات أمي ترن في أذني " إن والدك مختلٌ عقلياً، يعيش حيواتٍ كثيرة، وقد ألحق الأذى بكل من أدخلهم لحياته، لا شيء مما يقوله صادقٌ تماماً، إنه مريض بالكذب. علمت من صديقة لي تعمل مع زوجته سابقاً أنه لديه طفلين من الأُخرى، ولا أعلم من اختار ليورثه منكم."
خرجت بعد حديثي مع أمي بسيارتي الرياضية، أودي آر آيت زرقاء ذات الدفع الرباعي بمكينة مزودة بست أسطوانات بقوة ثلاث مائة وأربعين حصان، مسرعاً قاصداً منزل أبي الثاني، والذي وجدت عنوانه مخبأً في مكتبه في الدرج السفلي. كنا نسكن في شمال المنطقة وأبي في شرقها. قدت بسرعة ٢٥٠ في الساعة في شوارع منطقتنا الفرعية، متجاوزاً كل ضوءٍ أحمر لا يقوم إلا بإشعال غضبي احتراقاً. عندما اقتربت بنايتين من منزل أبي السري، اصطدمت بشجرة.

*****

مدينتنا هضاب تقع في أعلى الكرة الأرضية، كقمة رأسٍ لها. المناخ فيها معتدل صيفاً وخريفاً مثلج شتاءً وممطر ربيعاً. تُعد منطقتنا من أهم مناطق العالم وأكثرها حيوية وكثافة. سماءُ هضاب مغطية بشكل جزئي بشجرة ضخمة، جذورها الرئيسية متوزعة بشكل متساوٍ في أرجاء منطقتنا وبقية جذورها الفرعية منتشرة في أنحاء العالم. لهذه الشجرة أذرع بحجم نصف قطر الكرة الأرضية، تمتد شمالاً وجنوباً وشرقاً وغرباً. تقول العادات والقصص التراثية أن هذه الشجرة هي أول ما نبت في الأرض، وهي ما يحيطها ويثبتها ويحميها من الأعلى، وبالرغم من ذلك فإن الشرور التي نزلت إلينا من الأعلى، من الكواكب المجاورة التي تتخلص من الأسقام برميها للخارج، تتخذ سقف تلك الشجرة موطناً لها. تتميز هذه الشجرة بخاصية مختلفة عن باقي الشجر، فهي لا تتغذى من باطن الأرض، بل من قمة أفرعها؛ ولذلك فما يزيد من حجمها ويغذيها هو ما ينزل عليها من الكواكب المجاورة. تُنبت هذه الشجرة ثمرة واحدة؛ التفاح الذهبي، ليس الأصفر، بل الذهبي من الذهب الحقيقي. لأوراقها مزية وهي اختزان الشرور وتحويلها إلى ثمرة تسر الناظرين. سكان هضاب لديهم قصص متوارثة تحرّم تناول هذه الثمرة، لاعتقادهم بأن من يأكل من ثمرة تتغذى على الشرور ستبدو له وللعالم

سوءاته. لا يسقط ثمرها أبداً، وهو ما يبعث على الاطمئنان، تحتاج أذرعها لدفعات رياح قوية لإسقاط الثمر، أو كما حدث، اصطدام سيارة مسرعة.

*****

سقطت على سيارتي مجموعة ثمار غريبة لم أر كمثلها في حياتي، ثمرة تشبه التفاحة وليست بتفاحة، بل شيءٌ يشبهها مُذهّب. بالرغم من شدة استيائي على ما حدث من خراب لسيارتي ومما عرفت للتو عن أبي الذي جئت قاصده، إلا أنني شعرتُ بأن الكون يحاول إرضائي، لم أُفكر بوالدي وأمر ورثه بعد أن أصبحت مليونيراً بنفسي باكتشافي لشجرة تُمطر ذهبًا. ترجلت من سيارتي لأرى عن قرب، وأُحاول تصديق عيناي بما ترى، فإذا بي ألتقط إحدى التفاحات المجيدة وأُقربها من أنفي لاشتمامها، في الحقيقة بدت رائحتها كعصير التفاح تماماً، وبدأت أشك في موضوع هذا الذهب الذي أراه. أنا وكما رباني والدي، خبير في التجارة، ومما أعلمه أيضاً وقابلت العديد من الخبراء الذين وضحوه لي بالتفصيل، هو الفرق بين الذهب والمعادن الأصلية والمزيفة. بدت هذه أمامي كالأصلية تماما، ولكن برائحتها تلك قضمت قضمة لم تتأن نفسي عنها برهة، فإذا بها تفاحة. أكملتها وجمعت ما سقط على زجاجي الأمامي وعلى الأرض ووضعته في المقعد

الخلفي. حاولت جاهداً تحريك الشجرة لإسقاط المزيد فلم أستطع. عدت إلى سيارتي فإذا بالمحرك لايزال يعمل، والسيارة متضررة بشدة وقد تحطمت من الأمام. فإذا بي أقود معيدها إلى الوراء لبضعة أمتار وأُريح قدمي بقوتها على دواسة البنزين مندفعا مرة أخرى للأمام، نجحت العملية بالفعل، سقط المزيد من التفاح.

نسيت أمر أبي وما جئته لأجله، أخذت كنزي الجديد عائداً به إلى قصرنا المتواضع. أخذت أفكر طيلة الليل واليوم التالي حتى اهتدى عقلي لرشده؛ سأشتري الأراضي التي تحيط بالشجرة من كل الجهات. اتصلت بالمحافظ والذي كان صديقاً مقرباً لأبي لأعرض عليه الأمر بمبلغٍ لا تردد بعده، فإذا به مجاملاً لي -بل لمالي- يوافقُ على اقتراحي. اشتريتها بالفعل وبدأت العمل. خصصت سيارات من شركتي التي أدرتها مؤخراً لكي تقوم بالعمل المطلوب، حصلت في خمسة أيام على سبعين كرتون تفاح، في كل واحدٍ ثلاث تفاحات فقط، أبيع الواحد منها بسعر ثلاثة ألاف. ربما يجد البعض أنه مبلغٌ مبالغ فيه على ثلاث تفاحات مطليات بالذهب الخالص ولكنني أرى أنه لا يستحق أن يتناول ثمرة كهذه ويعيش حياة رغيدة إلا من لديه المال لذلك. وضعت إعلانات قائلة بأن هذه الثمرة المجيدة تطيل العمر وتضاعف الرزق وتبعد الضرر وأشياءٍ كهذه كتبها لي مدير الإعلانات الجديد. بعد اكتشافي المثير لم يهدأ عقلي أبداً، أصبح

مهووساً في أمر الشجر، فتمكنت في ذلك الشهر من احتكار جميع المزارع في مدينتنا. طردت كل المزارعون القديمون الجهلاء، ورفعت سعر جميع المزروعات فهذا ما تستحقه ثمار بجودة أن أكون أنا شخصياً صاحبها وموردها للأسواق. رفضت بعض الأسواق الشراء مني بحجة أن أسعاري لا تناسب دخلهم، فقمت بزرع محصول جديد في تربةٍ ملوثة ومشبعة بالمواد الكيميائية وبعته إليهم بالثمن الذي أرادوه. نعم، فلا يستحق أي أحدٍ أن يأكل ماطابت له نفسه من الثمار التي أزرعها وأحصدها وأجنيها، أنا المورد الرئيسي، بسعرٍ كهذا، إذا أرادوا تقليل حصتي من المال فلأُقلل حصتهم من فوائدها.

*****

رأيتُ الناس من حولي يصطفون بشكل دائري للرقص على الموسيقى، اعتقد أنهم لم يكونوا سوى ظلالِ أحدهم اعتراه الأرق في الكوكب المجاور فخرج ليتنزه تحت النجوم.

*****

١٧

اكتفينا أنا وحاتم في أول لقاء لنا بالشرود، شرد كلاً منا ليس ببعيد عن الآخر وافترقنا على ذلك الحال. في اليوم الذي يليه اجتمعنا مرة أخرى في يوم ممطر دون حجج، لم يحدث شيئاً بيننا منذ مغيب شمس ذلك اليوم الممطر وحتى ارتحل كلاً منا في خياله إلى الأرض المجاورة مرة أخرى. كانت لحظات يعمها الصمت ويكتنفها التحديق. استمر تحديقُ كلاً منا في عين الآخر لساعات. في بادئ الأمر وعندما غابت الشمس وخفت الضوء في داخل المنزل أدركت تلك اللمعة العاكسة في عيني حاتم -والتي كانت ضبابية بالأمس في شرودي- تأملتها قليلاً ثم اقتربت للنظر فيها، فإذا بي هُناك، في عينيه، بشكلي الكامل، كما في عيني أبي تقريباً ولكن بخدٍ أزهر. ابتسمت فرأيتُ ابتسامي تحدث في انعكاسي هنا أيضاً، وليس كذلك الأمر في عيني أبي كما جربت مسبقاً، فإذا بي وبشكل لا إرادي أُجرب تعابير وجهي أمامه لأرى كيف تبدو في عينيه؛ رفعت حاجبي وأنزلته وشددت جفني للأعلى وأغمضته وابتسمت بابتساماتٍ متفاوتةٍ

الاتساع، وضممت شفتاي وقدمتهما، عادا فجأة للوراء دون جهد مني، فإذا بي ابتعد متعجبة مما حدث. أخذت قطرات المطر المتسمرة على الزجاج تغمز لبعضها وتبتسم، اجتمع الكثير منها بسرعة ليدركوا ما حدث للتو، تدافعوا حتى أسقطوا القطرة الوحيدة التي تتذكر السيناريو كاملاً إلى الهاوية. حاولت النجاة بالتشبث بالقطرات الأُخرى فإذا بالخبر الذي أشاعته يحدث جلبة عند رفيقاتها أجمع ويتسارعون الواحدة تلو الأخرى لحضوره، فلم تستطع النجاة من تيار الجمهور المندفع ولم تتوقف إلى عند حافةٍ جذع شجرة لا تقتاتُ على الماء.

استيقظنا على صوت قرع قوي لتلك القطرة على النافذة، وكأنها تلقي اللوم علَى أحدنا على ما قاسته في تلك الليلة القصيرة والتي ستكون قصة كفاح جيدة جداً لتقصها على أحفادها مستقبلاً. ابتسمنا متعذرين لها حتى توارت عن أشعة الشمس. دخلت الأشعة موقظتنا بلطف وأضاء البيتُ مجدداً. تهيئنا وأعددت الفطور، بعضاً من البيض المسلوق والمزين بتوابله الخاصة التي يعدها مما يحصد من بستانه، وعصير أناناس طازج ورغيفي خبز، فجلسنا سوياً لتناوله. غطت إحدى أفرع شجرة كانت تنمو بالقرب شعاع الشمس الساطع فإذا بي ألمح تلك اللمعة مجدداً، نظرت فيها فلم أجد شيئاً من ملامحي المتغيرة، كان الأمر أشبه بالنظر إلى صورة رقمية، ثابتٌ جداً. بدى الحزن والخيبة في عيني، لم أدرك ما الأمر ولم ثبتت

ملامحي في عيناه بعد أن استمعتُ بتأملها في الليلة السابقة. شحت بناظري إلى طبقي وأكملت الأكل. لم أتمكن من تمالك حزني وإخفائه فأخذت بين الحينة والأخرى أطل في عينيه مترقبة حدوثي. لاحظ حاتم أن بي خطب ما، قطب حاجبيه ورفع بطرف أصبعيه رأسي من ذقني لينظر مابي، بادر لسانه بالسؤال فلم أُجب شيئا، اكتفيت بالنظر إليه بعينين تفوران. عدل جلسته وساوى بين كتفيه رافعهما للأعلى وأنزلهما بعد نفس عميق وسأل مرة أُخرى:

-أحدث شيء ما كدر صفوك؟

-لا.. لا أعلم.

-حدثيني ما الأمر؟

-إنه شيء، شيءٌ طار بي بالأمس من الفرحة وهوى بي اليوم لقاع الخيبة.

-ما هو ذلك الشيء!! أهو بسببي؟

-لا لست أنت، بل عيناك!

-عيناي؟

-أجل.

-وما الذي اقترفتاه؟

-لا أعلم كيف أقول ذلك، ولكنني..

-ماذا؟ أخبريني سأضعك مكانهما.

-حسناً، أنظر إلي سأُخبركُ بأمرٍ لا يعلمه غيرك.

-وما هو ذلك؟

-لقد توقفت صورتي في عينيك اليوم.

-لم أفهم..

-أن الأمر أنني بدوت فيهما بالأمس مختلفة ولكن اليوم بشكلٍ واحد..
إنه أمرٌ معقد، دعك منه وأخبرني ما جديد مكتبتك؟

هل يستطيع أحدٌ ما فهم حقيقة أن إنسانٌ ما لا يعلم كيف يبدو ولم ينظر في مرآة مسبقاً وأن له ظلٌّ ثابت في عيني الآخرين، لم يتحرك في حياته إلا مرة قصيرة جداً، وأن ما هوى به لقاع الحزن سريعاً هو قُصر تلك المرة، وسرعة انتهائها. ظننتُ بأنني وجدتني أخيراً في عيني حاتم ولكن سرعان ماخاب ذلك. لقد أكتفيت منذ عرفته بقلبه عن قلبي، وآمنت بمعنى -نصفٌ ثاني- الذي لطالما سمعتُ العشاق يرددونه، لقد أصبح لي كفايةً، واكتمالاً، وأمناً، ولا أعلمُ ما حدث لي الآن بعد ما جفتني عيناه وأصبح التحديق فيهما كالتحديق في الأبدية.

١٨

انتهينا من قراءة المجلد التاسع، وجدنا فيه أحداثاً متناقضة عن يومٍ ما، اعتقد أنه اليوم الذي غير مسار حياة أمي، ذلك التي لا تزال تلم نفسها عليه. فهمنا أن حريق ما حدث في بيت زوجها الأول وابنتهما أمل وأنها من تسبب به على الأرجح وأنهما قد تضررا منه ولكنهما بخير الآن. أكملنا المجلد حتى نهايته وبحثنا في المجلدات الأُخرى فلم نجد للقصة زيادة ولا نهاية.

-حسناً حريق، ابنتها، زوجها، طلاقها، ماذا بعد؟

-ليس لدي أدنى فكرة يا أمل وقد سئمت من البحث هنا في هذا المكان المظلم الممتلئ بالغبار والأسرار الغامضة التي لا نهاية لها، فلنخرج قبل أن يأتوا.

خرجنا وبالفعل تداركنا مداهمتهما لنا ونحن نبحث عن أسرارهما، لقد عادا فور خروجنا فتظاهرنا أننا آتيان من غرفتنا لاستقبالهما. كان الوقت حينها قبيل المغرب، ومن عادات السبت أيضاً هو الخروج للشاطئ قبالة منزلنا لتأمل الغروب. بدلنا ثياب النوم

التي كنا لانزال نرتديها وهممنا للخروج. من باب منزلنا حتى الشارع المقابل فالرصيف البحري فأحجارٌ تحول بين البحر والرصيف، فمنظر البحر قبالتنا. بدت أمي سعيدة جداً وحالمة وهي تنظر بتمعن لتلك الشمس المودعة أيانا لتغوص في أعماق البحر المظلم فتُهدئ من حرارتها حتى الشروق المقبل. أظن أن أبي بالنسبة لأمي كعمق البحر بالنسبة للشمس، فهو ما يُهدئ من لوعتها وهمومها ومتى ما ابتعدت عنه عادت للتحسر والبكاءِ من جديد.

عدنا إلى المنزل بعدما رافقت أعيننا الشمس إلى مضجعها، لنذهب إلى مضاجعنا نحن أيضاً. كنا مجهدان جداً أنا وأخي بعد رحلة البحث الشاقة التي قمنا بها طيلة الظهيرة، خلدنا للنوم فور وصولنا للسرير. استيقظت في اليوم التالي على ضجيج أخي عمار وهزه لكتفي الذي تحول في حلمي إلى مهدٍ معلق بين شجرتين يأخذني يميناً وشمالاً، قاطع هذا الحلم بنفخه في إذني وهمسه قائلاً لقد وجدتها.

-ما الذي وجدت؟

-الطريقة التي سنعرف بها القصة كاملة.

-ما القصة وما.. دعني أكمل حلمي.

-قلت لك استيقظ لقد وجدتها.

قمت من سريري بصعوبة، لم أحمل شيئا كثقل رأسي في ذلك الصباح، نظرت إليه نظرة استسلام وانقياد وذهبت لغسل وجهي وتنظيف أسناني. عدت إلى الغرفة فإذا به قد سبقني لمائدة الإفطار وصوت أمي

من بعيد ينادي هيا يا أمل سيبرد طعامك. ذهبت إليهم وجلست في الكرسي المقابل لكرسي عمار محاولاً الحصول على أي إشارة منه بشأن ما يحدث، ولأنه الكرسي الوحيد الفارغ في الحقيقة ومكاني عادةً. أكلت بسرعة وأنا أنظر إليه أريد منه الانتهاء سريعاً أيضا لكي أفهم ما الذي يحدث. انتهينا وانتظرنا لمساعدة أمي في تنظيف الطاولة وغسل الصحون وأنا قد سقمت من شدة الحيرة.
انتهينا أخيراً واستأذنّا أمي للخروج للعب في الفناء الخلفي، أعطتنا الإذن فخرجنا. ذهبت أركض للكرسي آخرِ الفناء ناظراً خلفي أثر عمار. سبقته فتبعني بعدة ثواني فجلسنا أخيراً.
-ما الأمر وما الذي وجدته؟
-أخفض صوتك بإمكانهم سماعنا.
-قل لي بسرعة ماهو؟
-حسناً، كنتُ أفكر كثيراً وكما تعلم بذكائي وحنكتني المعتادين استنبطت أمراً.
-كفاك تفاخراً وقل ما استنباطك المهم الذي أخذتني من حلمي لأجله؟
-كنت أفكر، أمي تحب الكتابة والقراءة، وهي تكتب يومياتها في مجلدات كبيرة ومنذ سنوات، ولكن بالرغم من ذلك لم نجد لقصتها أثر...
-أوقظتني لما نعرفه بالفعل من الأمس؟؟
-انتظر ما كل تلك العجلة..

-حسناً إذا انتهيت من تفاخرك ووصلت لصلب الموضوع نادني.
-تعال هُنا، حسناً الأمر هو أن أمي تقرأ وأراها دائما تستخدم قلم التظليل في كتبها، فالذي استنبطته أنها لم تكتب ما حدث لها بل ظللته في الكتب.

١٩

*****

أحياناً يكون كل ما يتطلبه الأمر هو رجوع خطوة إلى الوراء لرؤية كل شيء.

*****

احتكرت السوق الغذائية بعدما اشتريت كل المزارع والمصانع في بلدتنا مما كسبته من بيع صناديق تفاحي المجيد. أول زبائني كان المحافظ، اشترى مني ثلاثة صناديق له ولأهل بيته. بعدما أعجبه له طعم التفاح وتميزه عن باقي الفاكهة وقع لي بالموافقة على جعلي مسؤولاً عن الواردات في البلد، فاستحوذت بذلك على كل مصادر السوق الغذائية. الناس، من الطبقة الدنيا بدأوا يحتجون على الأمر ونظموا احتجاجات في أنحاء المدينة لوقف احتكاري، لم يعجبهم حال أسعار

السوق بعد أن أزهرته بأرقى أنواع الفاكهة المزروعة بأجود أنواع السماد والمقطوفة بعناية بيدين ناعمتين والمصفوفة في صناديق من نسيج قطن خالص. ولكن من يكترث؟ من لم يستطع دفع تكلفة ثمرة راقية كالتي جلبت فليمت جوعاً. أدعوا أن تغذيتهم قد ساءت، وأن أطفالهم يتضورون جوعاً بسببي وأنهم سيقاضونني ويتتبعون أثري في محاكم البلد جميعها. لم تتخذ وزيرة بدلتنا أي موقف بشأن احتجاجهم، وسمعت إشاعات تفيد بدعمها لهم. قلت لنفسي فلأذهب وأتحقق من ذلك بعيني، ذهبت قاصداً مكتبها وفي يدي لها هدية من الذهب الخالص، انتظرت حتى فرغت من اجتماعها والتقت بي. ناقشت معها الأوضاع في المنطقة بصفتي أهم شخصٍ فيها بعد المحافظ -الذي يدعم تماماً ما أقوم به وقد صرح لكل المحتجين الذين قالوا إن احتكاري سيجعلهم يموتون من الجوع قائلاً: إذا فاستعدوا لفقد بعضكم البعض. حاولت الوزيرة التملص مني باستراحة الغداء وهنا عرضت هديتي من التفاح المجيد. أخذت واحدة وأمرت بالبقية لسكرتيرتها، أكلتها وما أن انتهت حتى جائني اتصال مهم واضطررت للمغادرة. رحلت قلقاً على أمر لم يحسم ولم أنته من عملي المهم حتى المساء، غادرت بعده إلى المنزل -ليس منزل أبي ولا أبي بل قصري الجديد الذي أسكنه لوحدي بعد أن تخليت عنهم لكثرة مشاكلهم-. استيقظت في الثامنة صباحاً على اتصالٍ من المحافظ يبشرني فيه أن الوزيرة اتخذت إجراءات

صارمة على المحتجين، بل وأمرت بإطلاق النار عليهم ورمي جثثهم في الصحراء. سعدت لسماع أخبارٍ كتلك وخرجت من منزلي قاصداً مكتبها وفي يدي كرتون آخرٌ من التفاح وباقة ورد. أصبحت من أثرى أثرياء البلد، والآمر الناهي فيها، فبانضمام المحافظ والوزيرة لصفي لم يكن شيئا ليردعني.
أخذت تأتيني رسائلٌ على البريد بشأن الأوضاع ومن محتجين لم يذكروا أسماءهم وقصص غريبة أظن أن من أرسلها هم الجدات، وتكرر أمر هذه القصص كثيراً فهم يقلن فيها أن سبب احتكاري ونجاحي هو التفاح -اتفق معهن- ولكنهن يضفن أن به لعنة ما وأن انتشاره كالوباء الفاسد وأمورٌ ملفقة لترويعي ولم تفلح محاولاتهن، أيعقل أحداً أن ثمرة مجيدة مذهبة ينسب لها تهم كهذه.

*****

"عندما كنت في الرابعة خرجت ألعب في الحديقة حول الشجرة فإذا بقطعة ذهبٍ تسقط فوق رأسي، بدت لي كالتفاحة فقضمتها وما أن قمت بذلك حتى جاءت أمي مسرعةً لإخراجها من فمي: إن هذه الثمار كالوباء، من يتناولها يصبح دميم الخلق، ميت القلب، مجرداً من الإنسانية، إنها الطريقُ الأسرع للثراءِ وللخواء. من يملكها يقفز لعرش غنى المال ويقفز عن كرسي الأخلاق. إنها كالشجرة التي أخرجت أبانا من

نعيمه، وكما بدت له سوءته ستبدو لكل من يأكلها وللعالم من حوله سوءاته."

-البريد المهمل لمحتكر سوق الغذاء الجديد. -

*****

٢٠

اتفقت مع أخي عمار على أن نشرع في تنفيذ خطتنا ظهر السبت القادم عندما يغادران أبي وأمي للغداء. نصت الخطة على أننا سنحضر ورقة وقلماً ونتسلل إلى مكتبة أمي ونبدأ بالتنبيش في كتبها المفضلة واحد تلو الآخر ونرصد ما ظللته من عبارات في الدفتر الذي جلبناه.

كان أسبوعنا طويلاً جداً، فانتظار مجيء أمر مهم يجعل الساعة تدق دقيقة كل ساعة. جاء الأحد بعد جهد، ثم الإثنين بعد عناء، فالثلاثاء بعد سقم، حتى جاء اليوم المنشود. أوصاني أخي بالتصرف على سجيتي طيلة أيام الانتظار كي لا أحدث الريبة، ولم أستطع ذلك فقد كنت أترصد لأمي في كل كتاب تقرأه، أركض جالباً دفتري لكتابة عنوانه واسم المؤلف، واستجمع في ذاكرتي شكل غلافه. منذ أن علمت بالخطة، أصبح الأمر كالمسابقة بالنسبة لي، حتى بدأت أمي بطرح الأسئلة:

-ما الذي تقوم به يا صغيري؟

-لا شيء فقط أكتب.

-دعني أنظر ما الذي تكتبه.
-لا لا ليس بالأمر المهم فقط إحدى واجباتي المنزلية.
-ولكن هذا ليس أحد دفاترك التي تذهب بها إلى المدرسة!
-لقد أضفته إليهم لأن صفحاتهم نفذت.
-ولم تخبرني بذلك!
-ليس بالأمر الجل.
-أريد أن أعلم كل شيء عنك يا عزيزي، تقدمك وماذا أحرزت وإذا احتجت أي مساعدة فأنا هنا بجانبك للأبد.
-أعلم ذلك، أنت دائماً بجانبي أمي.
أوقدت نيران ضميري هذه الكلمة، إنني دائما ما كنت صادقاً وامیناً مع أمي وهي دائما ما كانت بجانبي وتدعمني في كل شيء، الآن أصبحت جاسوساً عليها فقط لأرضي فضولي المزعج، أفعلاً سأقوم بذلك، سأخون ثقتها، وربما أخسر وقوفها بجانبي بعد علمها بالأمر...
تدارك أخي انهيارات ضميري بدعوتي للعب معه.
ذهبنا للعب وكان ذلك ليلة يومنا المنشود.
أقبل السبت بعد طول غياب، استيقظنا بنفس الحالة التي كنا فيها الاسبوع الماضي، مستلقيان ننتظر من السقف التقاط حبل أفكارنا. جاءت أمي لتخبرنا أنها ستخرج كعادتها مع أبي للغداء، وأوصتنا بما توصي به دائما، أن نكون ولدين مهذبين مسؤولين، وألّا نلعب بالكرة داخل المنزل وألّا نفتح الباب لغريب،

ولا نشعل الفرن فهناك أكل معد على طاولة الطعام، أجبناها بالسمع والطاعة فقبلتنا وخرجت. نظرنا إلى بعضنا البعض عمار وأنا وقفزنا من سريرينا. تأكدنا أولاً من انطلاق والدينا ثم اتجهنا إلى مكتبة أمي. هُناك، وما أن فتحنا الباب حتى بدا لي الأمر كالولوج إلى زنزانة السجن الإنفرادي، سجنٌ مؤبد لثقتها بي والتي لن تغادر معنا من هذه الغرفة. بدا علي الارتياب في حين أن أخي عمار سال لعابُ عيناه شغفاً وشوقاً، أخذ يتفقد في كل زواية عن كتب أمي المفضلة ويتسلق رفوف المكتبة ويقفز من رف لآخر كما ينطلق القرد مطارداً لغدائه. وقفت جامداً عند الباب حاملاً الدفتر والقلم ولم أستطع التقدم بخطوة لسجن ضميري المؤبد. دعاني أخي مراراً ولكنني لم أجب. فإذا به يقفز من رفه ويجرني من يدي إلى الداخل ويقفل الباب:

-ماذا دهاك؟

-أشعر بالذنب.

-بشأن ماذا؟ تفقدنا لمكتبة أمي في غيابها؟

-نعم، أنت كذلك؟

-نعم إنني أشعر بنفس الذنب ولكنني واجهت شعوري ذلك بحقيقة أننا لا نريد بها ضرراً بل نريد إصلاحاً ما استطعنا، إننا ننبش في ماضيها لكي نعينها على حاضرها، لكي نجفف دموعها التي تنهل كل مساء، لكي نخفف وقع ما حدث لها عنها ونكون لها عوناً بعد الله فيما تقاسي.

-بالفعل صدقت.
-حسناً فلتجلس هُنا، سأحضر كتب أمي المفضلة التي أذكرها وتلك التي دونتها في دفترك ونبدأ بحل أحجية الجمل المظللة سوياً.
جمع عمار ما يزيد عن عشرة كتب من أقرب الأصدقاء لحضن أمي وكفاها على مر السنين. وبدأنا بتفقدها صفحة صفحة وجمع الجمل المظللة فيها حتى نكشف السر. وجدنا في الكتاب الأول تظليلاً على الجمل الآتية: "أصعب ما قد يقاسيه المرء هو امتلاؤه بذنبٍ لا يغفر."، "إنني قد واجهت خطيئتي، فاكتشفت عند اقترابي منها أنها انعكاسي في المرآة."، "لا يستنزف قلب الإنسان شيئا كالفقد."
حصرنا تلك الجمل في جدول وأنشأنا آخراً لجمل الكتاب الثاني: "أوليس ما أهلك من جاء قبلنا هو الجشع؟"، "لو يشعر الظالم بحرقة جوف من ظلمه لحرق بتلك النار ظلمه قبل اندلاعه.".
وفي الثالث وجدنا قطع أحجية تقول: "في البعد سلام."، "مات صبري صبراً."، "سأهوي في الخواء علني أحيا من جديد.".
جمعنا ما يقارب الأربعين جملة من الأحجية، وتوقفنا بصوت توقف سيارة أبي في المرآب. خرجنا واختبأنا مسرعين في المطبخ متظاهرين بالآكل، والذي كنا نلتهمه شراهة من الجوع، دخلا علينا وفمنا ممتلئ وبقايا الطعام تغطي خدينا الصغيرين:
-كيف كانت ظهيرتكم يا صغاري؟

أجبنا بعد محاولة ابتلاعٍ سريعة:
-هادئة جداً، اشتقنا إليكما.
-ونحن كذلك، ما الذي قمتما به؟
أكتشفت الأمر بهذه السرعة! من أخبرها؟ ألدينا كاميرات مراقبة في المنزل؟ هل تجسس علينا أحد الجيران؟ أم أن فأراً في مكتبتها نقل إليها النبأ العاجل؟ أهو قلب الأم الذي يدرك مالا يدرك؟
-قمنا باللعب في غرفتنا ورتبناها بعدما انتهينا.
لدى عمار رؤية فذة وثقة عالية في نفسه لا تتزعزع، إنه يكذب مبتسماً بكلماتٍ ثابته. انطلى الأمر على والدينا وتوقف عرق جبيني عن التساقط.

٢١

بعدما انتشر الخبر حول وباء التفاح المذهب الذي يصيب الناس بالعنصرية وانعدام الإنسانية والأخلاق، سارع الأعفاءَ منهم للانعزال في منازلهم خشية من الوقوع في هذه الفتنة. كان قد تفشى وباؤها وصنع لنا التجار الجديدون للبلد، وهم أولئك القادرون على دفع مبلغٍ وقدره لأكلِ حبة منها، وما أن يأكلوها ويحف أقدامهم عرش الغنى حتى يتجردوا تماماً من إنسانيتهم وأخلاقهم أمام العلن. أصيبت البلاد بحالة ذعر، وكذلك البلدان المصدر لها، أخذ الناس يخرجون أسوأ ما فيهم ويستضعفون بعضهم البعض، ويأكل الغني منهم الفقير والمقتدر منهم القانع، وأحلوا من أسموا أنفسهم بالطبقة العليا -لمعرفتهم لمذاق الذهب لأول مرة- دماء الطبقة السفلى -من لا يجدون مبرراً لأنفاق مبلغٍ طائل على تفاحة- وشاعت الفوضى.

في هذه الأثناء في بلدتنا قام أحد التجار الشرفاء بمحاولة لتدارك الأمر، اتجه إلى شركة محاماة معروفة بنجاحها ليرفع قضية على محتكر الغذاء

بعدما فعله بالناس وتسبب بمجاعتهم وإزهاق أرواحهم. كان يعمل في تلك الشركة محاميين كبيرين مشهورين بقضاياهما الناجحة وضميرهما اليقظ.
وصل رائد إلى الشركة وطلب الالتقاء بأشهر محاميين لديهم، طلبت منه موظفة الاستقبال الانتظار للتحقق من جدول أعمالهم، وجدت نصف ساعة متاحة في جدول المحامي الأول وحددت له موعداً فيها.
-حان وقت اللقاء سيدي الفاضل، تفضل معي للأعلى.
استقل الدرج للوصول لمكتب المحامي الأول الذي ومنذ أن زاول المهنة لم يخسر قضيةً في حياته. استقبله المحامي بصدرٍ رحب وبشاشة وطلب له كوب قهوة تركية وكوب ماء. عرض رائد مشكلته على المحامي:
-معك رائد محمد، خبير في مجال السوق الغذائية سابقاً، أُعفيت من منصبي بواسطة المحافظ بعد أن رفعت اعتراضاً على ما قام به وزير الغذاء الجديد ولم يتقبل ما ذكر فيه. قدمت إليك اليوم ولا أحمل في نيتي سوى محاولة التصدي على جشع مسؤولنا الجديد والفوضى العارمة التي أحدثها بنشره للتفاح المنحوس بعد أن ضاقت بي السبل للخلاص، فكما تعلم أن المسؤول استخدم استراتيجية للسطو على كل ما يريده من كبار البلد، وهو إرسال كرتون تفاح لهم قبل الاتصال والطلب منهم ما يجب أن يتم. لقد تفشى الأمر، ورحل بسببه أبرياء، وضاقت البلاد على

الفقراء والمغتربين، وبدأ ينعدم الأمان والاستقرار. يجب أن يقوم من هم مثلي ومثلك من الشرفاء بالتصدي لما يحصل وإنقاذ البقية من الناس.
-أحسنت فيما قلت، ولقد وصلني العديد من المطالبات أيضاً بالقيام بأمر ما قانوني وشرعي ليوقف هذا الجشع الذي أخذ يأكل البلاد ومن فيها شيئاً فشيئا.. ولكنني لأصدقك القول، لا أستطيع أن أقبل دعوتك.
-لماذا؟ أنت من أشهر المحامين الناجحين في بلدتنا لم لا تتصد لهذا الموبوء؟
-أشكر لك ثقتك مجدداً ولكن ولأسبابي الخاصة لا أستطيع عمل شيء.
-أأرسلَ لك كرتوناً أنت الآخر أم ماذا؟ ألم يتبق شرفاء لينقذوا العالم؟
-من فضلك تفضل بالخروج، إبحث عن محامٍ غيري لقبول دعوتك.

خرج رائد ناثراً الاتهامات من خلفه حتى وصل لباب الشركة، فاستوقفته موظفة الاستقبال طالبة منه الانتظار:
-ألا تريد مقابلة محامٍ آخر؟ لدينا محامٍ ثانٍ بنفس براعة السابق.
-أحقاً؟ وأين مكتبه؟
-دعني أصحبك إليه.
صعدا سوياً مرة أخرى لمكتبٍ يقع في الدور الأعلى موازياً لمكتب المحامي الأول. كان المحامي قد أنهى

يومه ويستعد للخروج فأوقفته الموظفة مستأذنة منه إعطاء القليل من الوقت -للزبون الغاضب-. نظر المحامي إليه نظرة تفحص فابتسم وأجاب بالقبول. دخل رائد إليه وأعطاه نفس المقدمة والقضية السابقة. ولكن ردة فعل المحامي جاءت مختلفة تماماً، كان يتفق معه في كل ما يقوله، ويشع منه حماس الفوز في القضية، حتى أنه أعطى موعداً لبدء التحضير للمرافعات في القضية قبل أن يدرك رائد أنه سيقبلها.

٢٢

-هل أستطيع أن أسألك شيئاً أبي؟
-بالتأكيد!
-ما هو السندس؟
-أي سندس تقصدين؟
-السندس نفسه.
-ولكن بأي شكل؟
-أهناك أنواع منه؟
-لا ولكنه يصنع بأشكال، كفستان أمك الحريري.
-لا ليس ذلك ولكن السندس الذي أشعر به.

إن السندُسِ هو شعورٌ يراودني دائماً. لا أعلمُ لمَ أكن في داخلي حنينٌ مؤبد له، وكأنه جزء مني. لن يبرأ حنيني يوماً وذلك لأن شعور السندس غمرني ولم يفاقرني أبداً طيلة عمري. ولكن ماهو السندس ولمَ لمْ أسمع بأحدٍ شعر به في يومٍ ما، سمعتُ من صديقاتي ومن حاتم أسماء مشاعرٍ كثيرة، كالفرح والسعادة

والحزن والغضب -ولا أعلم ما الفرق بينهم، ربما كان أحدهم من يجلب الآخر- والخذلان والخيبة والحماس والراحة والملل والضجر والاكتئاب والخوف والاطمئنان، وأسماء كثيرة -لا تصف بدقة ما نشعر به وتخذلنا دائماً-، ليس للسندس منها نصيب.
-السندس يا ابنتي كما تقول المعاجم هو ضربٌ من رقيق الحرير أو الديباج.
-ما تلك الأخيرة؟
-الديباج.
-وماذا يكونان الحرير أو الديباج؟
-الحرير هو نوع من الخيوط الذي تنتجه دودة القز، ويصنع من هذا الخيط الديباج، وهو نوع من الأقمشة.
-الأقمشة! وهي أنواع؟
-اعتقد أن عليك القراءة قليلاً فيما يخص الأنسجة لتأخذي فكرة عما ترتدينه.
أخذت بنصيحة أبي وذهبت لمكتبته لأبحث عن كتابٍ يتحدث عن الأقمشة أو الخيوط والأنسجة، ولم أجد شيئاً فاكتفيت بالقراءة عنها في القواميس. لا أستطيع وصف شعوري بعدما عرفت أن ما أصف به شعوري ولفترة طويلة هو ليس أحد المشاعر ولا يمت لها بأي صلة، بل خيوط متشابكة تصنع غطاءً!

*****

إنني أرتدي حلة نومي في منتصف الحفلة، ما الذي جاء بي إلى هنا في هذا الوقت المتأخر ألم أكن في سريري قبل لحظات؟

*****

شعور السندس الذي غمرني طيلة هذه السنوات هو عبارة عن احتواء وأمان وطمئنينة وحب، ملمسٍ دافئ يميل إلى البرودة، غير ثابت، ويصدر طنيناً عالياً ولكن مطمئناً، شعورٌ بالنجاة والحياة، كبصيص للأمل ونصف الكوب الممتلئ.

*****

إليك،

أما بعدك؛
فإن السماء عيناك،
والنجوم ماؤها.
وانفاسك نسمات فجري،
ومبسمك أسباب سعدي،
وصوتُك؛
لحنٌ يُعزفُ على أوتار قلبي.
وعقلكُ حجتي وبرهاني.

وقلبُكِ ذاك..
هو المعتدي،
ما سلبني مني،
ما بدّلَ أجرامَ كوني
واعتدى على حدود عقلي.

وفيكَ وحدك؛
املٌ وحياةٌ..
وكونٌ بأكمله لا ينقصه سواك!

وأما قبلك؛
فهو كونٌ بلا معالم،
وحياةٌ تفقِدُ ما يُميزُها.

-من حاتم إلى أمل-

*****

بالرغم من كل ما أكنه في جوفي لحاتم، وما تهتف به روحي عند لقائه، فإنني لا أفكر فيه، ولم أختر يوماً القيام بذلك. ربما يكون دائماً في عقلي ومُمسكاً كذلك بزمام أفكاري ولكن وجوده هناك يبرره شيء واحد وهو أنني بدأت أفقد السيطرة على حواراتي مع "أنفسي" مؤخرا؛ أصبحن جميعهن يتحدثن ويناقشن في الوقت نفسه عن أشياء مختلفة؛ لا أعلم ما هي!

إنني لا أسمع سوى ضجيج مستمر لا أميز فيه أي صوت بمفرده، فقط صوتٌ موحد لا يفهم منه شيء، إنهن لا يصمتن ولا يصغين إلي، ولم أجد شيئا مجدياً لأفعله فيردعهن ويسيطر عليهن ويعيد تنظيمهن سوى الإتيان به.

*****

شرع المحامي في بدء الإجراءات اللازمة للعمل على القضية، الشعب مقابل المحتكر. طلب من رائد التحدث بصيغة خاصة تفيد تضرره الشخصي من الأمر وتمكن من جمع عشراتٍ من الأشخاص ليكونوا ممثلين للعامة والضرر الذي لحقها. رفع طلباً للقاضي في المحكمة التجارية الابتدائية فأعطاه موعداً متأخراً بعض الشيء. قام المحامي في وقت انتظاره بحصر الإدانات جميعها من المدعيين المتضررين، وجهز ما يلزمه من البنود القانونية التي تدين ما قام به المحتكر وأتباعه من حديثي النعمة. جاء الموعد، استعرض المحامي القضية أمام القاضي كقضية احتكارٍ تجاري تسبب بتضرر السوق ومرتاديه، ومن جانبه فقد أعد المحتكر العدة والعتاد ليتملص من جرائمه. قدم المحامي حججه التجارية مستنداً على البند الخامس من المادة الثالثة من القانون التجاري والتي تنص على: "يمنع على الأسواق أن ترفع أسعار موادها الغذائية الأساسية اللازمة لكل

فرد في المجتمع بحدٍ لا يناسب غالبيته." فاتفق القاضي على ذلك قبل أن يعترض محامي الدفاع للمحتكر بإظهاره لدراسة تفيد بأن بيع المواد الغذائية في الأسواق مستمر على حاله ولم يشهد ركود ملحوظ. قام المحامي بردعه قائلاً: "إن من يحرك السوق هو التجار المؤيدون لاحتكارك، لكيلا تربح أي قضية مرفوعة ضدهم." قاطعه محامي الدفاع ضاحكاً بسخرية: "أين دليلك؟" طلب المحامي من موكليه الذين يحملون توكيلاً من مئات الأشخاص أن يصدعوا لمنصة الشهادة، وبدأ بطرح الأسئلة عليهم:

-متى كانت آخر مرة اشتريتم فيها من السوق؟

أجابوا جميعاً:

-منذ الاحتكار الكلي الذي قام به الخصم.

-ولم ذلك؟

-لأن أسعار السوق قفزت فجأة لحدٍ لا يمكن لرواتبنا أو رواتب المئات ممن نتحدث بلسانهم اليوم تغطيتها.

-ومن أين تغطون حاجاتكم الغذائية؟

-مما نملك مسبقاً في المستودعات، ومما يزرع بعضنا في حديقة منزله، ولكن كل هذا لا يكفينا ولا يكفي أبنائنا فقد تم تشخيصهم بعد شهرين من الأزمة بسوء التغذية.

-لا مزيد من الأسئلة.

قام محامي الدفاع متوجهاً لمنصة الشهود تعتليه نظرة كبرياء وسخرية:

-أنتم تقولون هنا أنكم تزرعون في حدائقكم ولم ينمعكم أحداً من ذلك أو يحاول إيقافه؟
-نعم.
-وهل موكلي يحتكر مستلزمات الزراعة؟
-لا ولكنه..
-أكتفي بلا، إذا كنتم تدعون أن الأسواق رفعت أسعارها فاستمروا بما تعملونه وأصنعوا من حدائقكم مزارعاً وحسنوا من تغذية أبنائكم، فموكلي وكما أجبتم لم يمنع أحداً من الغذاء على طريقته، وما قام به في الأسواق إنما هو من مصلحة العامة التي وكما هو واضح لا يدركها البعض في هذه القاعة. لا مزيد من الأسئلة من جانبي حضرة القاضي.
طلب القاضي استراحة ربع ساعة قبل نطق الحكم، وقفنا في الخارج مترقبين وخائفين فلم تجر الأمور بسهولة ووضوح كما تخيلنا. طُلب منا العودة إلى الداخل لحضور الحكم دخلنا وعدنا إلى أماكننا السابقة، وقفنا جميعاً لدخول القاضي وجلسنا والدماء لا تجري في عروقنا.
-بعد النظر فيما قدمتموه من حجج وبراهين وما استعرضه المحاميان وشهادة الشهود قضينا بما هو آت:
-نعلن ببراءة المتهم أعلاه من التهم الموجهة له، رفعت الجلسة.

بان على المحامي الخيبة والخذلان؛ لمَ خسرت في قضية كهذه؟ ولم يبرأ القاضي مجرمٌ تسبب في موت بعض الناس من المجاعة؟ ما الذي يبرر جشاعته في عين القاضي؟

أخذ المحامي أفكاره لمنزله وزوجته لكي يبحر فيها بشكل أعمق بعدما طمأن المدعين أنها ليست النهاية بالنسبة له، بعد طول تفكير وعصفٍ ذهني قام به مع زوجته الحامل في شهرها الأول وصل لحقيقة أنه لم يتطرق لجرائم القتل التي ارتكبت، ولخلو ما قام به المحتكر من ذرة إنسانية، إنه يحكر تناول الغذاء الجيد على الأغنياء فقط ويدع الفقراء يموتون جوعاً. طلب من موكله رائد أن يبحث ليجد عوائل الضحايا فيأخذهم كموكلين جدد، وطلب منه البحث أيضاً عن فقراء تضرروا وبشدة من سوء التغذية الذي اضطروا له. شرع المحامي بعد إحضارهم جميعاً كموكلين جدد في طلب استئنافٍ من المحكمة بسبب "الخطأ في تكييف الواقعة، ووصفها وصفاً غير سليم." رفع بطلبه إلى محكمة الاستئناف؛ والتي بدورها قد تناول قضاتها بعضاً من الذهب فرفضوا طلبه. فرفع طلباً للمحكمة العليا يطلب فيها النقض على الحكم الصادر من محكمة الاستئناف فجاءه الرد بالقبول.

رفعت القضية إلى "المحكمة العليا للإنسانية" متكفلاً بها القاضي الشهير "إنسان." تحدد الموعد وحضر المحامي والمدعين كلهم مالئين بدورهم مقاعد القاعة.

بدء استعراض القضية وقام المحامي بعرضها كقضية انتهاك حقوق الإنسان وقتل من الدرجة الثانية، قام كل محامٍ بدوره وكذلك الشهود وكانت محاكمة حامية من أكبر المحاكمات في تاريخنا.
استمرت الجلسات لعدة أشهر استنزفت جميع مدخرات مكتب المحامي وطاقته، قام المحتكر بإرسال تهديدات بشعة إلى المحامي وزوجته وموكليه للتنازل عن القضية، تفيد بالإعتداء والملاحقة والقتل تحت اسم مجهول، بعد أن رأى علامات من القاضي "إنسان" بالحكم عليه.
بعد ستة أشهر من الجلسات صدر حكم لصالح المحامي وموكليه ينص على: "الحكم على المحتكر بالسجن لستين سنة مع دفع غرامة لجميع من تسبب بضررهم وتجريده من منصبه لمسؤول أسواق الغذاء الجديد وإعادة ملكيتها للحكومة وللتجار النزيهين السابقين بالإضافة إلى مصادرة الشجرة والأراضي التي تحفها وإغلاق تلك المنطقة بشكل كامل."
شهدت المحكمة صرخات احتفالية صاخبة هزت جدرانها الصلبة في ذلك اليوم، حتى أن القاضي والحراس لم يستطيعوا السيطرة على الموقف واكتفوا بإعطاء "الإنس" حقهم من الفرحة. لم يكن الحكم فوري التنفيذ بل أعطى القاضي مهلة اسبوعين ليقوم فيها المحتكر بإصلاح ما أفسد.
في فترة القضية ألحق المحتكر أضراراً بشكلٍ غير مباشر لجميع المدعين على رأسهم المحامي، فقد قام

برفع الأسعار لحدها الأعلى وإغلاق الأسواق القريبة من منازلهم ومنع ضروريات الحياة عنهم من أدوية ومياه وكهرباء، وذلك بفضل علاقاته -التفاحية المذهبة- بالتجار الآخرين. لقد تضرر المدعون بسوء تغذية وتجربة قاسية بدت وكأنهم في حرب حقيقية حتى أن بعضهم قد انسحب خوفاً على حياته وحياة عائلته ولكن الأغلبية أكملوا حتى حققوا هذا الانتصار العظيم بالرغم من كل ما قاسوه. في تلك الأثناء راودت فكرة الانسحاب المحامي مراراً وتكراراً وذلك مما رآه من سوء تغذية ومعاناة وضرر قد لحق بزوجته الحامل. فقد اعتمدت على المطاعم السريعة في تغذيتها وذلك لعدم قدرتهم على الشراء من الأسواق. كانت زوجته تكرر على مسامعه وتقنعه -كاذبةً- أنها لا تحب تناول الطعام الصحي وذلك بسبب تغير شهيتها وقت الحمل، وأن كل ما تفضله وتريده هو الوجبات السريعة. المحامي بدوره لم يرض بذلك وحاول بجدية الانسحاب لإنقاذ حياتها وحياة الجنين، ولكنها استطاعت أن تقنعه بالعدول عن الأمر واستمرت في تذكيره بحيوات الناس التي أهدرت وسوف تهدر بسبب الجشع والعنصرية، كان لكلماتها الدور الأقوى في إشعال حماسته وإعادته مقاتلاً لأرض المحكمة.

بعد فوزه بالقضية وانتهاءه وموكليه وأهالي هضاب من مظاهر الاحتفال عاد للمنزل ليحتفل مع زوجته الحامل في شهرها السابع. عندما دخل إلى المنزل

سمع صراخها تطلب النجدة، هرع منقذاً لها فإذا بها تصرخ بأنها تواجه انقباضات حادة وستلد الآن، حملها راكضاً إلى سيارته وقاد إلى المستشفى. بعد انتظار ساعة جاءه الطبيب مبشراً له لقد رزقت بطفلة، أجهش بالبكاء فرحاً وقبل ذلك سأل عن حال زوجته فقيل له أنها واجهت بعض الصعوبات أثناء العملية ولكنها ستكون بخير. بكى بشدة في رواق المستشفى لمفرده على صدر الجدران المعقمة، لم تستطع قدماه أن تحملاه من الفرحة، فقد انتظر هذا الخبر لسنواتٍ عديدة. عاد إليه الطبيب مرة أخرى ليخبره بأنه يستطيع رؤية ابنته الآن، حملت قدميه الرياح العاتية فلم يدرك كيف وصل من الطابق الأرضي إلى الرواق الثالث في الطابق الخامس لرؤيتها.

وصل ورآها هُناك، قطعةً من النور لظلمة حياته، عيناها أنسته شهور معركة قد خاضها للتو وخسائر مالية جعلته يضطر لترك مكتبه، لم يكترث بكل ما حدث له عندما رآها نائمة هناك، والطبيب يقول إنها بصحة جيدة. وقف عندها لبعض الوقت حتى استأذنوه بالخروج من الحضانة، فخرج. ذهب لغرفة زوجته لكي يطمئن عليها ويطمئنها على ابنتها. دخل فإذا بها نائمة وأجهزة التنفس مثبتة عليها. انتظر بجانبها لساعتين حتى حركت جفنها، فتحت عيناها، رأته، ابتسم لها مطمئناً وعيناه تذرفان دموع الفرح، ابتسمت هي الأُخرى وعيناها تفيضان دمعاً وشدت

بقبضتها على يده وكأنها تريد أن تشعر بأي ألم يخبرها أن ما يحدث واقعاً.
بعد ثلاثة أيام أذن الطبيب بتسريحهن من المستشفى بعد أن استقرت الأم فعادوا إلى المنزل سعداء مبتهجين لنصريهم، نصر المعركة وانتصارٌ على عقمٍ استمر لسنوات. أوصى الطبيب الأم بلزوم السرير والراحة والتغذية الجيدة فقد تعرضت لخطر الوفاة أثناء ولادتها بسبب سوء التغذية التي مرت به. كانت تلك الأيام أسعد أيام المحامي المجتهد.

٢٤

*****

إنني وكما قلت كل ما أقوم به لتأمين قوت يومي في العزلة هو الكتابة. أكتب كثيراً طيلة الوقت، حتى أنني بدأت لا أميز الأيام عن بعضها البعض ولا الأوقات لقلة نظري إلى النافذة المطلة على الخارج. أنا أنسج بالكتابة حياة أريد عيشها، وحياة تمنيت عيشها. إن في عزلتي لحيوات؛ حتى وإن كُنت وحيداً فيها.

*****

-أبي متى ستنتهي عزلتك؟
-إنها أبدية.
-إذا فمتى ابتدأت؟
-في يومٍ ما.

*****

في يومٍ ما، بعد أن عاد المحامي لمنزله بثلاثة أيام قضاهن بجوار زوجته يطعمها ويتأكد من راحتها، بدأت نفسيتها تتعب بعض الشيء، وقد ذكر لهم الطبيب هذا الأمر، أنه من المحتمل أن تمر زوجتك بعد حملها الصعب بفترة اكتئاب ما بعد الولادة. في تلك الفترة أصبحت زوجة المحامي لا تتحمل بكاء ابنتها ولا تطيق الاهتمام بها طيلة الوقت، بل وأخذت تراودها أفكار عن عرضها للتبني من شدة الظلمة القابعة في داخلها من الآكتئاب. أخذ المحامي طيلة تلك الفترة بزمام أمور ابنته، أصبح يصنع لها الحليب الصناعي ويطعمها ويهدهدها حتى تنام، لقد خسر المحامي قبل ولادتها عالمه فجاءت له لتصبح عالماً آخر، بل ومن نعيم. في ليلة ذلك اليوم الثالث أخذت زوجته بالبكاء والصراخ عندما سمعت ابنتها تبكي، وأخذت تصيح بزوجها بأن يخرجها الآن، حاول إقناعها بأن الطقس في الخارج سيء والثلوج تغطي الشوارع فلم تستمع إليه، أحضر معطفاً لابنته وقبعة وحملها إلى الخارج.

طيلة تلك الأيام كان هناك من يترقب حدوث أي حركة في فناء المنزل لكي ينتقم قبل الذهاب لقضاء بقية عمره في السجن. خرج المحامي وابنته في الليل تحت الثلوج وهو جاعلُ من صدره وذراعيه كغطاء لها يحفها عن البرد منزلاً رأسه للأسفل لمحاولة الحديث معها بلغة الأطفال وتهدأتها، فإذا بصوت عيار ناري، رفع المحامي رأسه فلم يرَ أحداً أخذت

عيناه تدور جنوناً لترى ما الذي حدث فلم يجد شيئاً، ضم ابنته وهم للذهاب إلى الداخل فإذا به يشعر بدفءٍ يتسلل لذراعيه، وقف لينظر فإذا هي دماءُ ابنته والرصاصة مستقرة في جوفها، سقطت من يديه على الثلج من شدة الهلع، لم يعلم ماذا يفعل، صرخ باسم زوجته وكانت قريبةً من النافذة تتحرى صوت الرصاصة الذي سمعته فقال لها اتصلي على الإسعاف والشرطة، اتصلت بسرعة وكان مركز الشرطة والمستشفى قريبان من المنزل.

*****

إنني أرى انعكاسي في بركة ماء أمامي، وأشعر بالبرد الشديد وكأنما احتضنني جليد من الخلف، ما الخلاص!

*****

حمل المحامي ابنته بعد أن أوقعها وجلس معها على الجليد ينظر إليها بعينان واسعتان يغمرهما الدمع.

*****

أرى نيراناً حمراء وزرقاء تأتي من بعيد وأسمع صوت موسيقى صاخبة تقترب منا.

*****

وصلت الشرطة والإسعاف إلى موقعنا.

*****

إنني أقترب من الوقوع في البركة، ومياؤها بدأت تتساقط علي!

*****

اقتربت للنظر في عيني ابنتي لطمئنتها بوصول النجدة وعيناي تذرف دمعاً مما حدث.

*****

بدأ الدفءُ يغمرني، أشعر أنني محاطة بغطاء سندس دافئ، ولا يشعرني سوى بالحب والاطمئنان.

*****

احتضنت وجه ابنتي بكفاي.

*****

اسمع نبضي بخفة، وصوتٌ كلطفِ الغدير.

*****

أمل ابنتي، هذا والدك، أحبك جداً، كل شيء سيكون على ما يرام.

*****

ما الذي جاء بهؤلاء الناس للاحتفال في هذا الوقت وأنا بحلة نومي، إنهم يصطفون بشكلٍ دائري ليرقصوا على أنغام هذه الموسيقى الرديئة.

*****

من فضلكم ابتعدوا عن المكان ودعوا رجال الشرطة والإسعاف يقومون بعملهم.

*****

-قيس ما الذي حدث لابنتنا الوحيدة أجبني؟! قيس! لماذا لا تتكلم معي!
-سيدتي أرجو أن تهدئي من روعك وتعودي إلى الخلف لنقوم بعملنا.

-ما الذي حدث لابنتي؟ فليجبني أحد!!

*****

-سيدي إنني لا أشعر بأية نبض وعلاماتها الحيوية متوقفة.
-وقت الوفاة: ٢٢:٢٣.

*****

٢٥

إنها سنتك الأخيرة في الجامعة يا ابنتي ستتخرجين بعد شهر وتصبحين محاميةً ناجحة كأبيك، وبعدها ستتزوجين من حاتم إذا أردت منه أن يكون شريك حياتك وأردت الاستمرار معه وستنجبون لي أحفاداً جميلين يملكون قلب أمهم الرحب، وفي الإسبوع القادم ستكون ذكرى يوم ميلادك لبتلغي من العمر ٢١ سنة.

سنحتفل سوياً بهذه المناسبة وسنقضي وقتاً ممتعاً كعادتنا.

٢٦

استسلمنا أخيراً أنا وأخي عمار، فلم نستطع فك أحجية الجمل المظللة في كتب أمي. في السبت الذي يلي قيامنا بمهمتنا الأولى من الأحجية قامت أمي باكتشاف أمرنا وطلبت منا تبريراً لما يحدث، أجبتها بصدق قبل أن يراوغ عمار كعادته:

-إننا قلقون عليك.

-قلقون! من ماذا؟

-نراك دائما تبكين وسمعناك أكثر من مرة تتحدثين مع خالتي عن أمور في الماضي لا نعلم ماهي، وفي كل مرة نحاول سؤالك عن حياتك السابقة ترفضين الجواب فلم نجد طريقةً للاطمئنان عليك وللتمكن من مساعدتك ومواساتك سوى أن نبحث في مكتبتك عن السر، وقد وجدنا في مذكراتك شيء عن حريق ما في بيتك السابق وأن ابنتك، أختي، أمل هي السبب فيه وأنا أكرهها وأن..

-توقف هنا، تكرهها؟

-نعم لأنها سبب حزنك، وإذا رأيتها في يوم ما سأبرحها ضرباً.

-وأنا كذلك.
-ما الذي دهاكما أنتما الإثنين، صحيح أنني لم أستطع يوماً أن أذكر شيئا عن حياتي السابقة ولكن كل ما توصلتما إليه غير صحيح، لم يحدث حريقاً بالمعنى الحرفي، ولكن قلبي هو الذي احترق بسببي، وأختكم أمل التي تكرهونها لم تقم بشيء لي، لم تستطع ولم تسمح لها الحياة، فقد توفيت رضيعة في إسبوعها الأول من جراء عيار ناري، وأنا الملامة على الأمر بسبب دفعي لزوجي لملاحقة الناس الذين تسببوا في ذلك قبل وقوعه في المحاكم وقد تطلقنا لهذا السبب، كل من يلوم الآخر على ما حدث ولم نستطع النظر في وجه بعضنا البعض بعد رحيلها.

٢٧

-هل ستخرج من عزلتك هذا اليوم أبي لنحتفل بذكرى ميلادي سوياً؟
-نعم، سآتي إليك.